صلاة في أروقة الزهراء

قراءة في المشهد الحضاري الأندلسي في القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور صلاح جرّار



منشورات أمانة عمّان الكبرى
2003


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صلاة في أروقة الزهراء

قراءة في المشهد الحضاري الأندلسي في القرن الرابع الهجري

صلاة في أروقة الزهراء

قراءة في المشهد الحضاري الأندلسي في القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور صلاح جرّار



منشورات أمانة عمان الكبرى
2003

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٣/٨/١٧٠٤)

٩٥٦,٠٦٥١
جرار، صلاح
صلاة في أروقة الزهراء : قراءة في المشهد الحضاري الأندلسي
في القرن الرابع الهجري / صلاح جرار.ـــ عمان:
أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠٣ .
(١٥٥)ص.
ر.إ : ٢٠٠٣/٨/١٧٠٤
الواصفات : /التاريخ الإسلامي/ /الحضارة العربية/ /تاريخ
الأندلس ٧١١-٧١٢ /

❖تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

هِمَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكْرَها ... مِنْ بعدِهِمْ فبألسُنِ البُنْيانِ

أَوَ ما ترى الهَرَمَيْنِ قد بقيا وكم ... ملكٍ محاه حادثُ الأزمانِ

إنَّ البِناءَ إذا تعاظَمَ شأنُهُ ... أضْحَى يدلُّ على عظيمِ الشّانِ

الخليفة عبد الرحمن الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعدّ البحث عن النموذج -سواءً أكان عن طريق التخيّل أم عن طريق الإيغال عبر تجارب التاريخ- من أهم مسؤوليات المثقّف والمؤرّخ، ولاسيّما إذا تعرّضت الأمّة لانتكاسات خطيرة، أو واجهت تحدّياتٍ تهدّد وجودها ومستقبلها وهويتها.

ولمّا كانت الأمّة العربيّة والإسلامية تواجه منذ نحو قرنٍ من الزمن أشكالاً مختلفة من الاستضعاف والاستخفاف والاستعمار والاحتلال والابتزاز والازدراء والإذلال المتواصل لتصفية حسابات تاريخية- على ما يبدو- وبصورة مطّردة متصاعدة لا تحمل أيّ مؤشر على نهاية قريبة لها، فإنه يغدو من واجب كل ذي عقلٍ مستنير في هذه الأمّة، وكل ذي رأي وبصيرة، أن ينقّب عن اللحظات المضيئة في تاريخها وذاكرتها، ممّا تساعد قراءته وتفحّصه على اكتشاف أسباب نهضة الأمم والوقوف على أسرار حصانتها ومقوّمات منعتها وقدرتها على مجابهة الأخطار والتحديات وتجاوز المحن والانتكاسات.

وفي التجربة الأندلسية ما يستحق النظر والتأمّل، إذ يصدق

عليها قول الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الأيّامُ نُداولُها بَيْنَ النَّاس﴾ (آل عمران ١٤٠) فنجدها تارةً تبدع حضارةً لا مثيلَ لها على الأرض في ذلك الزمن، ثم نجدها بعد ذلك تقدّم أبلغ نموذج من نماذج الضعف والانهيار.

وقد قصرتُ هذه الدراسة على تجربة النهوض دون تجربة السقوط، لأن المطلوب- وقد تكرر السقوط- أن نبحث عن سبل النهضة والوقوف على القدمين ثانية.

إنّ لحظات النهوض بعد العثار من أعظم لحظات التجربة الأندلسية نفاسة، لما تنطوي عليه من دروس بالغة الأهمية، لكلّ من يتطلّع إلى الانتفاع بتجارب التاريخ والاستئناس بسننه وأحكامه، وإن كان لا مناص لمن يعمل لصالح الأمة وحاضرها ومستقبلها من النظر في تجارب التاريخ وتمثُّل سننه وأحكامه.

ومن أروقة الجوانب المضيئة في التجربة الأندلسية تطلُّ علينا مدينة قرطبة حاضرة الأندلس في القرن الرابع الهجري عاصمةً كونية وقد بلغت شأواً عظيماً في الحضارة والرقي، يرتادها القريب والبعيد والأسود والأبيض والقوي والضعيف كلٌّ له غاية يسعى إليها. وللمرءِ أن يتخيّل شوارع تلك المدينة وطرقاتها تحتضن

جماهير المارّة بملابسهم الجميلة البراقة ولهجاتهم المختلفة ورطاناتهم التي تأخذك كلّ واحدة منها إلى أصل بعيد أو قريب. وللمرء أن يتخيّل المساجد وقد اكتظت بالناس الذين يقرأون القرآن ويذكرون الله تعالى، وأن يتخيل الأسواق فيها من صنوف التجارات وضروب السلع والبضائع، وأن يتخيّل مجالس العلم وما يدور فيها من سماع وروايةٍ ومناظرات وجدل وإملاء ونسخ، وأن يتخيّل ما فيها من مجالس الطرب والغناء والموسيقى والفكاهة، وأن يتخيّل قصر الزهراء والوفود صاعدة وهابطة إليه بعضها يطلب الصلح وبعضها يطلب الودّ والموالاة والطاعة، وأن يتخيّل مجالس القضاء والناس داخلة إليها وخارجة منها ومعهم قصصهم ورقاعهم. وللمرء أن يتخيّل مجالس الأدب والشعر وفحول الشعراء ينشدون قصائدهم في مناسبات لا تنقطع. وللمرء أن يتخيّل الجيوش وهي تعرض بين يدي الخلفاء استعداداً لغزوات الصائفة، وطبول الحرب والجهاد تصمّ الآذان وتشرح الصدور والقلوب. وللمرء أن يتخيّل نجمَيْ الخلافة في ذلك القرن: الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وابنه الذي ولي من بعده الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) وهما يتربّعان على سرير الملك في قصر الزهراء ومن حول كلّ منهما الأمراء والوزراء والفقهاء والكتّاب والحجّاب والشعراء

في ترتيب محكمٍ للجلوس والمثول بين يدي الخليفة .

ذاك هو الزمنُ الأندلسي الذي كانت فيه كلمة الخليفة لا تنزل الأرض ، فيأتيه ملوك أوروبا وملوك معظم بلاد المغرب طائعين ومؤمّلين رضاه مهما تمادى في شروطه ومطالبه .

ذاك هو الزمن الأندلسي الذي لم تنحنِ فيه هامةٌ في الأندلس لغير الحق سبحانه وتعالى .

ذاك هو الزمن الأندلسي الذي لم يأبه فيه الأندلسيون بكونهم منقطعين بين بحرين من الماء والأعداء ، فكسروا شوكة الأعداء بجيوشهم الضاربة في أواسط أوروبا ، وكسروا شوكة الماء بأساطيلهم التي فرضت سيطرتها على سواحل إفريقية وبسطت سلطانها على البحر الأبيض المتوسط .

ذاك هو الزمن الأندلسي الذي كان فيه اسما الناصر والمستنصر يثيران الرعب والفزع في نفوس أهالي الممالك الإسبانية التي كانت تناصب المسلمين العداء .

لقد كان عصر الخلافة الأموية في الأندلس في القرن الرابع الهجري أبهى حقب الزمان الأندلسي وأرفعها شأواً وأعلاها مكانة وشأناً وأكثرها ازدهاراً في كلّ الميادين والساحات ، وكان اعتلاءُ عبد

الرحمن الناصر لعرش الإمارة الأموية في قرطبة سنة ٣٠٠هـ أهمّ منعطفٍ في تاريخ الحضارة الأندلسية، حيث انتقلت الأندلس بمجيئه من حالة التمزّق والضعف والفتن إلى حالة بناء ونهضة ووحدة وتألّق، لتشهد حضارة شامخة طوال القرن الرابع الهجري ظلّت الأساس لكلّ ما بناه الأندلسيون حتى آخر يوم من أيام وجودهم في ذلك الفردوس الذي قال فيه ابن خفاجة:

يا أهل أندلسٍ لله درّكم ... ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ

ما جنةُ الخلد إلاّ في ديارِكُمُ ... ولو تخيّرْتُ هذي كنتُ أختار

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سَقَراً ... فليس تُدْخَلُ بعد الجنّةِ النارُ

ولقد تدارك اللّه تعالى الأندلس بالخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) حيث أخمد الفتن التي كانت تموج بها الأندلس، وكبح جماحَ المطامع الإسبانية والأوروبية في تلك البلاد، وقدّم هو وابنه المستنصر نموذجاً فريداً في الحكم والسياسة وإدارة الأزمات وتحقيق الوحدة والرخاء وضمان الأمن والحماية للوطن والرعيّة وتشييد الصروح الثقافية والعلمية والحضارية. وهو نموذجٌ يستحق أن نستذكره ونحن نسعى لبناء مشروعنا النهضوي الحضاري.

مـدخل

تنطلق هذه الدراسة في بحثها عن مقومات النهضة وعواملها من نموذج حضاري فريد يتمثل في تجربة الحكم العربي الإسلامي للأندلس، فقد مثلت هذه التجربة، التي امتدت لثمانية قرون (٩١هـ- ٨٩٧هـ)، نقيضين: الازدهار في أرقى صوره وتجلياته، والانهيار في أظلم حالاته، وكان لكل منهما مظاهره وأسبابه. وتقتصر هذه الدراسة على تسليط الضوء على النهضة الحضارية التي شهدتها الأندلس في القرن الرابع الهجري إبان عصر الخلافة الأموية، فهي حقبة غنية بالدروس والفوائد.

لقد قدر للأندلسيين أن يقيموا في أرض منقطعة عن امتدادهم العربي والإسلامي، بين بحرين: بحر من الماء وبحر من الأعداء، ولا بدّ لمن هذه حاله أن يلتمس سبلا للبقاء وأن يجترح وسائل لدفع الأذى المتوقع في كل حين، وما لم يفعل ذلك فسوف يتواطأ عليه البحران، حتى يؤول إلى الهلاك.

لقد أمضى الأندلسيون نحو ثمانية قرون متصلة في أرض الأندلس وجهاً لوجه مع أوروبا التي لم تتوان لحظة واحدة عن محاولة اقتلاعهم وقذفهم إلى خارجها، وظلت صيحة طارق بن

زياد بعد أن أحرق سفنه على سواحل الأندلس: "البحر من ورائكم والعدو أمامكم" ماثلة في أسماع الأندلسيين وأذهانهم إلى أن غلبهم الأعداء ففرقوهم على مساحة من الأرض تمتد بين المحيط الأطلسي والخليج العربي في المغرب وموريتانيا والجزائر وتونس وليبيا ومصر والشام والعراق والحجاز وتركيا وغيرها، ليظلوا شهودا على انكسارات الأمة وضياع أمجادها.

وقد تحدث المؤرخون- قديما وحديثا- عن عصر واحد من عصور ملوك الطوائف في الأندلس، وهو العصر الممتد من ٤٢٢هـ إلى ٤٨٣هـ، وتناسوا أن الأندلس شهدت عبر تاريخها عصورا عدة يمكن وصف كلّ منها بعصر ملوك الطوائف، وكانت خلالها تتشظى حد الانهيار ويطل خطر الأعداء من ثقوب ذلك التمزق.

أما المرة الأولى فكانت بعد الفتح مباشرة يوم اختلف طارق بن زياد مع موسى بن نصير، والعرب مع البربر، والقيسية مع اليمانية، والبلديون مع الشاميين، ليتسبب هذا التمزق في وقف الفتوحات نحو الشمال ووقوع هزيمة قاسية انتهت باستشهاد القائد عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ. ولولا أن تدارك الله الأندلس بعبد الرحمن الداخل لارتد العرب والمسلمون على أعقابهم قبل أن يقوم الحكم العربي الإسلامي على قدميه. وقد

أمضى عبد الرحمن الداخل معظم فترة حكمه (١٣٨-١٧٢هـ) في استنزال الثوار والخارجين عن الحكم، مثل ثورة يوسف الفهري في طليطلة وثورة عبد الرحمن اليماني بإشبيلية، وعبد الرحمن حيوة ابن ملامس في غرب الأندلس، والعلاء بن مغيث الجذامي بباجة، وسعيد اليحصبي في لبلة، وهشام بن عروة في طليطلة، وعبد الرحمن الفهري في تدمير وغيرهم.

وأما المرة الثانية ففي أواخر عهد الإمارة الأموية في زمن الأمير عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥-٣٠٠هـ) حيث اعتصم عدد من رؤوس الثوار في المدن الأندلسية الكبرى مثل عمر بن حفصون في إلبيرة وإبراهيم بن حجاج في إشبيلية، وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس، وسعيد بن هذيل بحصن المنتلون وديسم بن إسحق في مرسية ولورقة، وعبيد الله بن أمية في جيان، وعبد الملك ابن أبي الجواد في باجة، ومنذر بن السليم في شذونة. وقد أورد ابن عذاري في البيان المغرب أسماء أكثر من عشرين ثائراً منهم (تحت عنوان: جملة الثوار بالأندلس في أيام الأمير عبد الله الخارجين عن الجماعة، المضرمين لنار الفتنة)[1]. واستطاع الإسبان في هذا الزمن أن يستولوا على كثير من المدن والقلاع والحصون من أيدي المسلمين.

---

(١) البيان المغرب ١٣٣/٢-١٥٠، أعمال الأعلام ٢٧.

وتدارك الله الأندلس بالخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) حيث أخمد الفتن جميعها وكبح من جماح الأطماع الإسبانية والأوروبية في نموذج فريد في الحكم والسياسة وإدارة الأزمات وتحقيق الوحدة والرخاء وحماية الأوطان.

أما المرة الثالثة فكانت بعد سقوط الخلافة الأموية وقيام عصر ملوك الطوائف (٤٢٢هـ- ٤٨٣هـ) حيث استقلّت كل طائفة بالمدينة التي كانت تقطنها، حتى زاد عدد دويلات الطوائف على عشرين دويلة متنازعة متناحرة وملوكها مستغرقون في متع الدنيا ولهوها، بينما كان ألفونسو السادس ملك قشتالة يراقب ذلك فرحا، فانتهز فرصة ضعفهم وتنازعهم، وأخذ يستولي على مدنهم مبتدئا بمدينة طليطلة التي احتلها سنة ٤٧٨هـ. ثم تدارك الله الأندلس مرة أخرى، ولكن هذه المرة بيوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب، الذي لبى دعوة الأندلسيين بإنقاذهم، فدخل الأندلس وهزم الإسبان في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ ثم استولى على الأندلس عندما ناصبه ملوكها العداء وتحالفوا ضده مع الأعداء.

وكان من ممالك الطوائف: بنو عباد في إشبيلية وبنو جهور في قرطبة وبنو حمود في مالقة وبنو هود في سرقسطة وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو صمادح في المرية، والعامريون في بلنسية، وبنو

الأفطس في بطليوس، وبنو زيري في غرناطة . . الخ.

أما المرة الرابعة، فكانت بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب (٦٠٩هـ) إذ توزعت الأندلس ما بين بقايا الموحدين في قرطبة وإشبيلية، وبني هود في سرقسطة، وبني مردنيش في شرق الأندلس، وسعيد بن الحكم القرشي في ميورقة ومنورقة، وبني الأحمر في أرجونة، وبني الرميمي في المرية، وبني خطاب في مرسية، وابن أحلى بلورقة، وغيرهم.

وكان من نتيجة هزيمة العقاب على المسلمين والتمزق الذي أعقبها أن استولى الإسبان على قرطبة وإشبيلية وجيان وبلنسية وشاطبة وسواها، ولم يبق في الأندلس سوى مملكة غرناطة التي أصبحت تحت حكم بني الأحمر (٦٣٥هـ- ٨٩٧هـ)، وافترقت الأندلس عن المغرب بعد أن كانا بلدا واحدا طوال أيام المرابطين والموحدين.

أما المرة الخامسة، فكانت عشية سقوط غرناطة، عندما اختلف أبو عبد الله الصغير مع والده أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر بسبب زوجتي أبي الحسن: عائشة العربية وثريا الرومية، فانقسمت مملكة غرناطة على إثر ذلك إلى مملكة في الحمراء بزعامة أبي الحسن، وثانية في وادي آش بزعامة أبي عبد الله الصغير وثالثة في

مالقة بزعامة أبي عبد الله الزغل عم أبي عبد الله الصغير .

وقد أدت هذه الفتنة إلى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ في أيدي الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا .

ولو دققنا في تفاصيل التجربة الأندلسية لوقفنا على حالات أخرى من التمزق . وينطبق على هذه الحالات جميعاً قول ابن رشيق القيرواني :

ممـا يزهّدني في أرض أندلسٍ	أسماءُ معتمد فيها ومعتضد
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها	كالهرِّ يحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسد

وفي جميع هذه الحالات كانت الأندلس تبلغ حالة من الضعف تشجع الإسبان على مهاجمة أراضيها والبطش بسكانها وقضم عددٍ من مدنها وحصونها .

وتبقى بعد ذلك نماذج مضيئة في هذه التجربة الأندلسية تجلّت في أيام عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ) وفي القرن الرابع الهجري أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وابنه الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ)، وكذلك في أيام المرابطين (٤٨٤-٥٢٤هـ)، وشطر من أيام الموحدين قبيل هزيمة العقاب(٦٠٩هـ)، وشطر من أيام بني الأحمر وخاصة في القرن

الثامن الهجري أيام أبي الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر وابنه محمد الخامس الغني بالله.

غير أن القرن الرابع الهجري، أيّام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، كان أكثر عصور التاريخ الأندلسي ازدهارا وقوة وتقدما وتحضرا، على الرغم من أن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر لدين الله ولي الأندلس في رأس هذا القرن وهي تموج بالفتن وكانت على شفا الانهيار والضياع. وهذا التحول من الانهيار إلى الازدهار ومن التمزق إلى الوحدة ومن مهاوي الحضيض إلى مشارف الذرى ومن الضعف إلى القوة ومن السقوط إلى النهضة هو الذي نسعى إلى استكشاف أسبابه واستكناه أسراره ومعرفتها كي تكون نموذجا لنهضة الأمة.

وقد استرعت هذه التحولات اهتمام كثير من المؤرخين قديما وحديثا، ففي دراسة لها بعنوان: "إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوروبا عبر الأندلس" منشورة في كتاب "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" تقول مارغريتا غوميز: "وكانت قرطبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أيام خلافتي عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعا في ذلك الوقت، والأكثر تحضرا في أوروبا، كما يشير

المؤرخ المشهور رامون مننديث بيدال "[1].

وفي خطبته التي ألقاها بين يدي عبد الرحمن الناصر لما احتفل في الجلوس لدخول رُسُلِ ملك الروم الأعظم صاحب القسطنطينية عليه بقصر قرطبة سنة ٣٣٨هـ يشير منذر بن سعيد البلوطي إلى ما كانت عليه حال الأندلس قبيل تولي الناصر الإمارة فيها وما أصبحت عليه بعد توليه الملك، فيقول: "وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، بضيق الحال ونكد العيش والتقتير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء. أنشدكم الله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟! والسبل مخوفة فأمنها؟! والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟! ألم تكن البلاد خرابا فعمرها؟! وثغور المسلمين مهتضمة فحماها وزهرها؟! فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتأليفه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله غيظكم وشفى صدوركم،

---

(١) الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ٢/١٤٧٨ .

وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم، أناشدكم الله ألم تكن خلافته قيد الخلافة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد حتى باشره بالمهجة والأولاد، واعتزل النسوان وهجر الأوطان.. "(١).

(١) تاريخ قضاة الأندلس ٦٧، اقتباس الأنوار للرشاطي ٣٩.
وانظر إشارات أخرى إلى هذا التحول في الحلة السيراء ١/١٩٧-١٩٩، أعمال الأعلام ٢٩، ٤١، البيان المغرب ٢/١٥٧، ٢٢٣-٢٢٤، نفح الطيب ١/٣٥٣.

من مظاهر النهضة في الأندلس في القرن الرابع الهجري

وقد رافق هذا التحول نهضة شملت كثيرا من جوانب الحياة الأندلسية: سياسية وعسكرية وعمرانية واقتصادية وعلمية وأدبية وسواها.

أما **النهضة السياسية والعسكرية**، فقد تجلّت في تحقيق وحدة الأندلس بعد أن كانت ممزقة بالفتن والثورات، فقد أمضى عبد الرحمن الناصر أول ست وعشرين سنة من حكمه (٣٠٠-٣٢٦هـ) في إطفاء الفتن واستنزال العصاة وضمهم إلى الطاعة وحبل الجماعة، ولم يغفل حماية الثغور من الإسبان وإخراج الصوائف إليهم، فكان أحيانا يوجه إليهم قادته مثل بدر بن أحمد وأحمد بن محمد بن حدير وأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة وإسحق ابن محمد القرشي المرواني وغيرهم، وأحيانا كان يخرج إليهم بنفسه، وربما صحب معه ولي عهده ابنه الحكم المستنصر بالله.

ومن الفتن التي أخمدها الناصر لدين الله فتنة في إستجة أخمدها سنة ٣٠٠هـ[1]، وثورة قاسم بن علي في بجّانة[2] سنة

---

(١) المقتبس ٥/٥٥.

(٢) نفسه ٥/١١٢.

٣٠٣، وثورة بني حفصون أخمدها سنة ٣١٦هـ[١]، وثورة مسعود ابن تاجيت بماردة أخمدها سنة ٣١٦[٢]، وثورة خلف بن بكر بأكشبونة[٣]، وثورة عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي في بطليوس أخمدها سنة ٣١٨هـ[٤]، وثورة محمد بن هاشم التجيبي في سرقسطة أخمدها سنة ٣٢٣هـ[٥].

وقد بلغ مجموع ما أخضعه الناصر من حصون المخالفين داخل الأندلس وقلاعهم أكثر من ثلاثمائة حصن وبرج خلال السنة الأولى من حكمه (سنة ٣٠٠هـ)[٦].

وقد ذكر ابن حيان القرطبي في كتابه «المقتبس» عبد الرحمن الناصر وقال إنّه في سنة ٣٢٦هـ "صير الأندلس جميعا في قبضته واقتلع أمر النفاق بأسره فلم يبق بعد محمد بن هاشم ناكب عن الطاعة"[٧].

كما تجلت النهضة السياسية والعسكرية بمواصلة الجهاد وإرسال

(١) نفسه ٥/٢٠٩-٢٣١.
(٢) نفسه ٥/٢٣٨.
(٣) نفسه ٥/٢٤٨-٢٤٩.
(٤) نفسه ٥/٢٧١.
(٥) نفسه ٥/٣٥٧-٣٦٥.
(٦) نفسه ٥/٦١-٦٣.
(٧) نفسه ٥/٤٢٢.

الصوائف وتجريد الكتائب إلى دار الحرب، وتحقيق الانتصارات النوعية على الجلالقة والبرشلونيين والفرنجة والقشتاليين. وقلما مضى عام من أعوام حكم الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وأعوام خلافة المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ) دون أن يخرج الجيش الأندلسي إلى دار الحرب، وكان هذا الجيش يعود في الغالب بغنائم وأسرى وسبايا. وكان الناصر ومن بعده المستنصر يقودان في الغالب الجيش في تلك الصوائف بنفسيهما، وربّما يغيبان شهورا عن قرطبة، وكثيرا ما كانا يخرجان في رمضان[١].

وورد في نفح الطيب للمقّري عن الناصر ما نصّه: "فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قبل في أيام سلفه"[٢] وقد "هابته أمم النصرانية"[٣].

وكان من نتيجة هذه الغزوات والانتصارات أنها أمدّت الأندلسيين برصيد زاخر من الثقة بالنفس واحتمال آثار الهزائم العابرة التي قد تصيبهم، فقد وقعت على جيش الناصر هزيمة الخندق سنة ٣٢٧هـ في أراضي جليقية على يد رذمير بن أردون على باب

(١) انظر أخبار هذه الغزوات في المقتبس/الجزء الخامس، والجزء الخاصّ بالحكم المستنصر تحقيق عبد الرحمن الحجي، والبيان المغرب في الجزء الثاني، ونفح الطيب ١/٣٦٣-٣٦٤ وغيرها.
(٢) نفح الطيب ١/٣٥٤.
(٣) نفسه ١/٣٦٤.

مدينة شانت مانكش، وكان قد حشد لهذه الغزوة عدداً كبيراً من أهل الأندلس وقبائل البربر ومتطوعة الأقطار، وقتل فيها من المسلمين خلق وأسر كثير، وأسر فيها القائد محمد بن هاشم التجيبي، وتمكن الناصر من النجاة بعد أن فقد مصحفه الخاص ودرعه الأثيرة لديه. (١)

وعلى الرغم من فداحة هذه الهزيمة إلا أنها كانت - على غير المتوقع- السبب وراء تعاظم قوة الأندلسيين واشتداد عزمهم وإيقاعهم الرعب في نفوس الجلالقة وغيرهم من أمم الإسبان، وجاء في أعمال الأعلام في الإشارة إلى هذه الغزوة ما نصّه: "وصنع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساح بلادهم ما لم يصنعه لأحد ممن قبله، وتوالت عليه بعد ذلك المنوح وأذعنت الأعداء..." (٢).

وكان الناصر لدين الله بعد أن وقعت عليه هذه الهزيمة قد أخذ في سنة ٣٢٨هـ في الاستعداد لغزو جليقية من دون المتطوعة والرعية الذين اعتاد أخذهم معه، كما أمر كل الثغور بإطلاق السرايا إلى بلاد الحرب، فحققوا انتصارات كثيرة أنست المسلمين ما أصابهم في

(١) أعمال الأعلام ٣٧، نفح الطيب ١/٣٥٣، المقتبس ٥/٤٣٢-٤٤٦.
(٢) أعمال الأعلام ٣٧.

الخندق، حتى وردته أربعة كتب فتوح في يوم واحد.

وفي خضم هذه الغزوات والاستعداد للمزيد منها جاء رذمير بن أردون ملك الجلالقة يطلب السلم فعقد له، على أن يدخل رذمير وعدد من ملوك برشلونة في طاعة الناصر مقابل تأمين تجارهم إلى الأندلس[1]. وكان من شروط الناصر على رذمير أن يتخلى عن إمداد جميع النصرانية الذين ليسوا في سلم مع الناصر، وأن يحل المصاهرة التي بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة، ففسخ المصاهرة وطلّق زوجه طاعة للناصر.[2]

إن هزيمة الخندق سنة ٣٢٧هـ وما تبعها من انتصارات للمسلمين سنة ٣٢٨ تؤكد أن خسارة معركة -مهما كانت فادحة- قد تتحول إلى هزيمة إذا ما مست الروح المعنوية، ولكنها تكون مقدمة لانتصارات عظيمة إذا وجدت روحا متماسكة تستند إلى رصيد عظيم من الانتصارات والثقة بالنفس.

كما تتجلى النهضة السياسية والعسكرية في أيام الخليفتين الناصر والمستنصر بما حققه هذان الخليفتان من مكانة سياسية جعلت ملوك إسبانيا وأوروبا يسعون إلى مصالحتهما والتقرب منهما

---

(١) المقتبس ٥/٤٤٩-٤٥٥.

(٢) نفسه ٥/٤٥٤-٤٥٥.

بالتحف والهدايا والرسل. وكان هؤلاء الملوك يكتفون أحيانا بإرسال سفرائهم إلى بلاط الناصر والمستنصر بالهدايا، وأحيانا كانوا يأتون بأنفسهم. وكان الناصر والمستنصر يعدان لاستقبالهم كل ما يستطيعانه من أبهة السلطة، ويكرمانهم ويغدقان عليهم الأموال والهدايا والمكافآت التي تليق بعظمة الخلافة وجلالتها.

أما ملوك الإسبان فكانوا يفدون على الناصر والمستنصر طلبا للصلح وعقد السلم، وفي كل مرة كان يعقد الصلح وفق الشروط التي يطلبها الخليفة الأندلسي؛ ففي سنة ٣٢٢هـ دخلت طوطة ابنة شنيير ملكة بنبلونة في طاعة الناصر، ووصلت عنده بنفسها مع القوامس والأساقف ومعها هدية حسنة، وعقد لها الأمان، واشترط عليها أن تخلي عن رهائن بني ذي النون العالقين عندها وعددهم أربعة[١].

وفي سنة ٣٢٣هـ عقد الناصر لدين الله سلم رذمير بن أردون ملك جليقية بعد خطبته لها وتردد رسله في التماسها[٢].

وفي سنة ٣٢٨ عقد سلم رذمير بن أردون ودخل عدد من ملوك برشلونة في طاعة الناصر[٣].

---

(١) المقتبس ٥/٣٣٥.
(٢) نفسه ٥/٣٦٥
(٣) نفسه ٥/٤٥٤-٤٥٥.

وفي سنة ٣٢٩هـ كمل صلح رذمير بن أردون وعقده الناصر لدين الله مع الوفد الذين أشخصهم رذمير إلى الحضرة.. وارتفعت به الحرب بين الملتين ما بين مدينة شنترين إلى مدينة وشقة، وأدخل رذمير فيه مع نفسه غرسية بين شانجه بن غرسيه صاحب بنبلونة، وفرذلند بن غندشلب صاحب قشتيلية، وبني غومس وبني أنشور وغيرهم من عظماء القوامس بجليقية[١]. وفي سنة ٣٢٩هـ أيضا قدم على الناصر سندريط رسول شنيير بن غيفريد صاحب برشلونة وابن عمه مجددا لعهده مؤكدا لطاعته ومعه هدية حسنة من طرائف بلده، فأوصله الناصر لدين الله إلى نفسه وقبل هديته وأكرم مثواه وضاعف مكافأته[٢]. واستمرّ وصول وفود ملوك الإسبان طوال أيام الناصر وابنه المستنصر[٣].

وكانوا في بعض الأحيان يتقربون إلى خلفاء الأندلس بإطلاق سراح أسرى المسلمين، ففي سنة ٣٣٠هـ أرسل رذمير بن أردون هدية إلى الناصر ومعها ثلاثون أسيراً من المسلمين[٤]. وفي سنة ٣٦٠هـ ورد بون فولي رسول بريل بن شنيير حاكم برشلونة على

---

(١) نفسه ٥/٤٦٧.
(٢) نفسه ٥/٤٦٩.
(٣) انظر: البيان المغرب ٢/٢٢١، ٢٣٥، نفح الطيب ١ / ٣٥٤، ٣٦٤-٣٧١، المقتبس/تحقيق الحجي ٢٠، ٦٣، ١٣٨، ١٤٦، ١٦٨، ١٨٢، ٢٤١.
(٤) المقتبس ٥/٤٧٥-٤٧٦.

الحكم المستنصر "معرّفاً بالذي هو عليه من تصحيح طاعته وموالاته . . من التقرب إليه بإهدائه إليه ثلاثين أسيراً من أسارى المسلمين جمعهم في قاعدته وأطراف عمله من ذكر وأنثى، إذ أعلم أنّ ذلك أفضل ما يُسر به أمير المؤمنين ويبتهج به ويكافئ عليه. وذكر ابن حيان أن الرسل قبلوا يدي الحكم وخرّوا ساجدين بين يديه[1].

ومما يلفت النظر في هذه الوفادات وعقود السلم والمصالحة، أن خلفاء بني أمية كانوا يستغلون فترات السلم لتقوية حصونهم وشحنها بالجنود والسلاح والقوت "استظهارا على الحوادث الطارقة"[2]، فالسلم لا يعني طلب الراحة والاسترخاء وإنما يعني فرصة لتقوية البلاد والحصون وإنشاء المدن الحربية مثل مدينة سالم التي أخذ الناصر بإنشائها سنة ٣٣٥هـ بالثغر الأوسط الشرقي المواجهة لبلدة قشتيلية لتصبح بعد ذلك شجا في حلوق الكافرين[3].

ويدل ذلك على بصيرة وبعد نظر عند الخلفاء الأمويين بالأندلس وإدراكا منهم أن الأعداء لا بدّ أن ينكثوا العهد في يوم ما.

ومما يلفت النظر أيضا في عقود السلم والمصالحة والطاعة

---

(١) المقتبس / تحقيق الحجي ص ٢١ .
(٢) المقتبس ٥/٤٥٥ .
(٣) البيان المغرب ٢/٢١٣ .

والأمان بين خلفاء بني أمية وملوك الإسبان، أن بلاط الخلفاء الأمويين غدا موئلا للملوك الإسبان يرجعون إليه لفض النزاعات التي تقع بينهم أو لطلب بعضهم النصرة ضد بعضهم الآخر.

ومن الأدلة على ذلك، أنه في سنة ٣٤٧ وفدت على الناصر طوطة ابنة شنيير ملكة البشكنس (بنبلونة) ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجه بن رذمير الملك وإعانة حافدها غرسيه بن شانجه على ملكه، الذي استولى عليه أردون بن رذمير، ونصره من عدوه، وجاء الملكان معها، فاحتفل الناصر لقدومهم، وعقد الصلح لشانجه وأمه، وبعث العساكر مع غرسيه ملك جليقية فردّ عليه ملكه، وخلع الجلالقة طاعة أردون إليه[1].

وفي زمن المستنصر ٣٥١هـ كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجه بن رذمير- وهو ابن عمه- وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية على طاعته، واستظهر أردون بصهره فرذلند قومس قشتيلية، توقع مظاهرة الحكم لشانجه كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيرا. فوعده الحكم بالنصر من عدوه[2].

(١) نفح الطيب ١/٣٦٥-٣٦٦.
(٢) نفح الطيب ١/٣٨٤، البيان المغرب ٢/٢٣٥.

وكان ملوك الإسبان عندما يفدون على الخليفة الأموي يحملون الهدايا النفيسة، ففي سنة ٣٥١هـ "بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية وهي: عشرون صبيا من الخصيان الصقالبة، وعشرون قنطارا من صوف السمور، وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة أدراع صقلبية، ومائتا سيف فرنجية. فتقبل الهدية، وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور وألا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين"[1].

وأما الملوك من غير الإسبان، وهم كثيرون أيضاً، فكانوا يرسلون رسلهم إلى قرطبة طلبا للمودة، وفي ذلك يقول ابن حيان القرطبي عن عبد الرحمن الناصر "إن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية"[2].

وورد في كتاب اقتباس الأنوار للرشاطي في الحديث عن عبد

---

(١) نفح الطيب ١/٣٨٤-٣٨٥.

(٢) نفح الطيب ١/٣٦٦.

الرحمن الناصر ما نصّه: " فطار ذكره كلّ مطار، في قصيّ البلاد والأمصار، حتى لذعر منه من بالقسطنطينية وما وراءها إلى أرمينية، فأتت ملوك جميع النصرانية باخعة ملقية بأيديهم خاضعة إلى حضرة أمير المسلمين وناصر الدين دام تأييده راغبة في الموادعة مصانعة، فتواصلت إليها على يدي القائد الأعلى المذكور وانعقد سلمهم وللإسلام والدين بذلك أتمّ الظهور[1]. وفي حديثه عن الخليفة الناصر قال المقري في أزهار الرياض: " وكان ملكه بالأندلس في غاية ما يكون من الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وجرت إليه أو وفدت خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية "[2].

وفي سنة ٣٣٤هـ وصلت إلى قرطبة رسل ملك الروم الأكبر قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية العظمى بكتب من ملكهم إلى الناصر. وكان الكتاب مصبوغا بلون سمائي مكتوبا بالذهب[3].

---

(١) اقتباس الأنوار ص ٦٠.
(٢) أزهار الرياض ٢/٢٥٨.
(٣) البيان المغرب ٢/٢١٣، تاريخ قضاة الأندلس ٦٧، أزهار الرياض ٢/٢٧٢.

وفي سنة ٣٣٨هـ كان قدوم رسل ملك الروم الأكبر صاحب القسطنطينية على الناصر راغبا منه في إيقاع المؤالفة واتصال المكاتبة. . ودفعوا كتاب ملكهم في رق مصبوغ سمائي مكتوب بالذهب، وكان على الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح عليه السلام، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده[1].

وقد تكررت وصول رسل ملك القسطنطينية في أيام المستنصر[2].

وممن وفدوا على قرطبة رسول صاحب جزيرة سردانية وصل سنة ٣٣١هـ يخطب الصلح والألفة ومعه تجار[3].

وأورد صاحب نفح الطيب أسماء عدد آخر من الملوك الأوروبيين ممن جاءت رسلهم إلى قرطبة سنة ٣٣٦هـ حيث يقول: "ثم جاء رسول من ملك الصقالبة- وهو يومئذ هوتو- ورسول آخر من ملك الألمان، ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء إلبرت، وهو يومئذ أوقة، ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق وهو

(١) البيان المغرب ٢/٢١٥، نفح الطيب ١/٣٦٦-٣٧١. وانظر تفاصيل جلوس الناصر لهذا الوفد أيضاً في أزهار الرياض ٢/٢٥٨-٢٦١ وانظر أيضاً الملحقين رقم (١) و(٢).
(٢) المقتبس / تحقيق الحجي ص ٧١.
(٣) المقتبس ٥/٤٨٥.

يومئذ كلده، واحتفل الناصر لقدومهم، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعا الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين "[1].

ووصلت رسل هوتو ملك الصقالبة أيضا سنة ٣٤٢هـ[2].

وتكرر وصول رسل هوتو أيضا أيام الحكم المستنصر[3].

إنّ كثرة هذه الوفود والرسل التي كانت تتقاطر إلى قرطبة من جميع دول أوروبا بالمطالب والهدايا، إنما تدلّ على المكانة السياسية المرموقة التي بلغتها الأندلس في عهد الخليفتين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر.

كما تجلى الازدهار السياسي والعسكري أيام الناصر والمستنصر بتوسيع ملكهما إلى مدينة سبتة بالمغرب، وقدمت عليهما رسل الملوك المغاربة من زناتة والأدارسة والقيروان وجزائر بني مزغنا[4].

وأشار الشاعر إسماعيل بن بدر إلى تطلعات الناصر سنة ٣٠١هـ عندما ضبط البحر وساحله، حين قال: [5]

أجزتُ القفر بعد القفرِ أبغي بذاك رضى إمام المغربين

ومن لا يرتضي دعةً إلى أن يكون خليفةً بالمشرقين

---

(١) نفح الطيب ١/٣٦٥.

(٢) البيان المغرب ٢/٢١٨.

(٣) المقتبس / تحقيق الحجي ص ١٦٨.

(٤) أعمال الأعلام ٣٧، نفح الطيب ١/٣٥٤.

(٥) المقتبس ٥/٩١.

ونظراً لكثرة الوفود التي كانت تصل إلى قرطبة عين الناصر قاضيه منذر بن سعيد البلوطي سنة ٣٣٠هـ "للنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها "[١].

وبلغ الجيش الأندلسي من القوة مبلغا عظيما، وقد أنشأ الحكم المستنصر اسطولا سنة ٣٥٢هـ بلغ ستمائة جفن ما بين غزوي وغيره[٢].

وأما **النهضة الاقتصادية** فتتمثل في الرخاء الذي شهدته الأندلس حتى إنه لم يكن بالأندلس سائل في القرن الرابع إلا أن يكون صاحب عذر[٣]. وقد وصف ابن حوقل الأندلس عندما دخلها في القرن الرابع الهجري فقال: "وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة.. تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك فاشية فيها، ولما هي بها من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك منهم مهينهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم.. "[٤]. وكان من نتيجة ذلك

(١) المقتبس ٥/٤٨٨.
(٢) أعمال الأعلام ٤٢.
(٣) نفح الطيب ١/٢٢٠.
(٤) نفح الطيب ١/٢١١، صور الأرض لابن حوقل ١٠٤.

أنه لو وقع محل شديد في الأندلس لما كان أثره على أهلها كبيرا، ففي سنة ٣٢٤هـ "أمحل الناس المحل العام الذي لم يعهد فيها بمثله، ولا سمع كاتصاله. . فأقام الناس مع ذلك بحال صالحة، لم تنفق أسعارهم كل الإنفاق لاحتباس، ولا تبدلت لهم حال بشدة الإمحال، بل بقيت النعم وسطهم وافرة، واستمرت البركات بينهم ظاهرة" (١).

وما ذلك إلاّ بسبب التخطيط الاقتصادي الواعي والتنظيم السليم الذي لا يقف عند اللحظة الحاضرة بل يتعداها إلى المستقبل والمتوقع من الأمور الطارئة. وهو تنظيم ينسحب على الأمور الاقتصادية والسياسية والعسكرية وغيرها. وهو شأن أنظمة الحكم المتطوّرة.

وقد بلغت جباية الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر "من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن المستخلص والأسواق سبعمائة ألف دينار وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان" (٢).

وقسم الناصر هذه الجباية إلى ثلاثة أقسام: قسم للجند

---

(١) المقتبس ٥/٣٨٣-٣٨٤.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٣١-٢٣٢، نفح الطيب ١/٢١١، ٣٧٩، ٥٢٤.

والحروب، وقسم للبنيان، وقسم للادخار[1]. ولعل هذا القسم الثالث هو الذي يفسر عدم تضرر الأندلسيين بالمحل.

ولعل حجم الإنفاق الذي كان ينفقه الخليفة الناصر وابنه الخليفة المستنصر على العمران والصدقات وسواها يكشف عن مدى الازدهار الاقتصادي. ومما يدل على حجم هذا الازدهار هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد التي قدمها للخليفة الناصر سنة ٣٢٧هـ، فقد اشتملت في ما اشتملت عليه خمسمائة ألف مثقال من الذهب الخالص وأربعمائة رطل من التبر وخمسمائة ألف دينار فضة، وكميات كبيرة من العود الهندي والحريروالجلود والثياب والفراء والفراش والبسط والسروج، وألف ترس ومائة ألف سهم ومائة فرس وأربعة بغال وأربعين وصيفا وعشرين جارية، وكميات كبيرة من صخر البنيان، وقرية بكاملها تغل آلافا من أمداد الزرع وثلاثمائة ألف عود ونيفاً على عشرين ألف عود من الخشب، وغير ذلك[2].

وذكر ابن خلدون أن هذه الهدية "مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها"[3].

(١) المغرب ١٨٣/١، البيان المغرب ٢٣١/٢، أعمال الأعلام ٣٨، نفح الطيب ١٤٦/١، /٢٧٩، ٥٢٤/١.
(٢) نفح الطيب ٣٥٦/١-٣٦٠.
(٣) نفسه ٣٥٦/١.

وقد كثرت في القرن الرابع الصناعات والأسواق، وتحدثت المصادر عما يشبه المدينة الصناعية، ففي الحديث عن عبد الرحمن الناصر يقول لسان الدين بن الخطيبت في كتابه أعمال الأعلام: " ومن آثاره التي ضربت بها الأمثال، وقضيت منها العجائب، حال الطراز ببابه، لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكسى وملابس الحرم وغير ذلك، فقد كان على عهده مدينة تشتمل على آلاف من الخلق قد اتخذت فيها المرافق والمساجد والحمام والسوق، ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضائعهم ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب "[١].

كما ازدهرت التجارة مع أهل المشرق ومع الأوروبيين، واشتملت معاهدات الصلح بين خلفاء بني أمية وجيرانهم من الإسبان والأوروبيين شروطا تسهل حركة التجار بين الطرفين.

ومثلما كان في مدينة المرية دار لصنعة السفن كان في الزهراء دور لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب إلى آلات الزينة من الحلي وغيرها[٢].

وأما **النهضة العمرانية**، فما زالت شواهدها قائمة إلى اليوم

---

(١) أعمال الأعلام ٤٠ .

(٢) نفح الطيب ١/٥٧٨ .

كالمسجد الجامع بقرطبة ومدينة الزهراء وتوسعة الطرق وبناء القناطر، وبناء الحصون والأبراج، وإقامة الأسواق وغير ذلك كثير.

أما مسجد قرطبة فقد شهد توسعات وزيادات أيام الناصر ثم أيام ابنه المستنصر، وقد زاد الناصر في المسجد "الزيادة الهائلة"[1] حين بنى الصومعة العظيمة سنة ٣٤٠هـ بصخر الحجارة المنقولة إليها على العجل، وجُعل لها مصعدان لكل منهما (١٠٧) درجات، وجعل في أعلى ذروة المنار ثلاث رمانات تغشي النواظر بشعاعها وتخطف الأبصار بالتماعها، اثنتان من الذهب والوسطى من الفضة، وفوقها سوسانة من الذهب المحض مسدسة، وفوق السوسانة رمانة صغيرة من الذهب، ثم طرف الزج وفيه تاريخ مكتوب بالذهب، وزنة كل رمانة من الثلاثة المذكورة قنطار واحد فما دونه، ودور كل واحدة ثلاثة أذرع ونصف[2]. وقيل إن الناصر أنفق في صومعة المسجد وفي تعديل المسجد وبنيان الوجه للبلاطات الأحد عشر بلاطا سبعة أمداد وكيلين ونصف كيل من الدراهم[3].

وأما المستنصر فقد افتتح خلافته (سنة ٣٥٠هـ) بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، وهو أول عهد أنفذه، وقلد ذلك حاجبه

---

(١) أعمال الأعلام ٣٨.

(٢) أعمال الأعلام ٣٨، البيان المغرب ٢/٢٢٨، نفح الطيب ١/٥٤٧-٥٤٨.

(٣) البيان المغرب ٢/٢٣٠-٢٣١ (وانظر تفصيلات عن الجامع في نفح الطيب ١/٥٤٥-٥٦٣).

وسيف دولته جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي، وذلك في اليوم الثاني من خلافته. وقد خرج المستنصر بنفسه للنظر في الزيادة وتقديرها وتفصيل بنيانها وأحضر لها الأشياخ والمهندسين، وكان طول الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسة وتسعين ذراعا، وعرضها من الشرق إلى الغرب مثل عرض الجامع[1].

وفي سنة ٣٥٤هـ بنى المستنصر قبة على المحراب في الزيادة، وزين هذه الزيادة بالفسيفساء، وكان ملك القسطنطينية قد بعث بها مع صناعتها إلى الحكم، وكان الحكم قد كتب له في ذلك وأمره بتوجيه صُنّاعها إليه، فرجع وفد الحكم بالصانع، ومعه الفسيفساء ثلاثمائة وعشرون قنطارا، بعث بها ملك الروم هدية، فأمر الحكم بإنزال الصانع والتوسيع عليه، ورتب معه جملة من مماليكه لتعلم الصناعة، فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة، وصاروا يعملون معه، فأبدعوا وأربوا عليه، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم، إذ صدر راجعا عند الاستغناء عنه بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة، وتداعى إلى هذه البنية كل صانع حاذق من أقطار الأرض[2].

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٣٤.

(٢) أعمال الأعلام ٤٢، البيان المغرب ٢/٢٣٧-٢٣٨.

ووجد بخط الخليفة المستنصر بالله عن تكاليف هذه الزيادة "وبلغت النفقة فيه إلى مائتي ألف وأحد وستين ألفا وخمسمائة وسبعة وثلاثين دينارا ودرهم ونصف"(١).

ومن إضافات المستنصر على مسجد قرطبة أنه في سنة ٣٥٦هـ "أجرى الماء إلى سقايات الجامع والميضأتين اللتين مع جانبيه شرقيه وغربيه، ماء عذبا من عين بجبل قرطبة، خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس. وفي جري الماء إلى قرطبة يقول محمد بن شخيص من قصيدة له:

وقد خرقتَ بطونَ الأرضِ عن نُطَفٍ من أعذب الماء نحو البيت تجريها

طهر الجسوم إذا زالت طهارتُها ري القلوب إذا حرّت صواديها

قرنْتَ فخراً بأجرٍ قلَّ ما اقترنا في أمة أنت راعيها وحاميها(٢)

وقد هدم المستنصر الميضأة القديمة التي كانت بفناء الجامع، وبنى موضعها أربع ميضآت بعضها للرجال وبعضها للنساء، وجلب لها ثلاثة أحواض من الرخام اقتطعها من جبل قرطبة، وحملت فوق

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٤١.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٤٠، نفح الطيب ١/٥٥٥.

عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط- يجرها سبعون دابة[1].

وفي سنة ٣٦٥ صنع المستنصر منبراً للمسجد من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندي، وكلفه خمسة وثلاثين ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير[2].

ويذكر أن عدد أعمدة مسجد قرطبة بلغت (١٢٩٣) عمودا[3].

وبالإضافة إلى هذا المسجد كان بقرطبة في القرن الرابع ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا[4].

كما عني خلفاء بني أمية بالأندلس ببناء المدن الملوكية مثل مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر ابتداء من سنة ٣٢٥ وكان يصرف بها كل يوم ستة آلاف صخرة من الصخر المنجور العريض سوى صخر التبليط والتأسيس. وجلب إليها الرخام من تونس وقرطاجنة إفريقية، وجلب إليها سواري الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وأربعاً وعشرين سارية، وجلب إليها من بلاد الروم

---

(١) نفح الطيب ١/٥٥٥.
(٢) البيان المغرب ٢/٢٥٠.
(٣) نفح الطيب ١/٥٤٧. وينظر في وصف الجامع أيضا: فرحة الأنفس ٢٩٧-٢٩٩، الروض المعطار ٤٥٦-٤٥٨، جغرافية البكري ١٠٣، نزهة المشتاق ٢٠٨-٢١٢.
(٤) نفح الطيب ١/٥٤٠.

على يد ربيع الأسقف حوضاً منقوشاً بالذهب ينقل هوينا من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر، ورفع منه إلى بلده، فكان عبرة لمتأمله، وجلب إليه أحمد بن حزم حوضاً ثانياً منقوشاً فيه تماثيل، لا قيمة له، احتيل في اجتلابه من بلاد الشام، فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس الغالي[1].

وبنى عبد الرحمن الناصر في قصر الزهراء المجلس المسمى بقصر الخلافة. وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة. وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور "[2].

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٣١، أعمال الأعلام ٣٨، فرحة الأنفس ٢٩٩-٣٠٣، نفح الطيب ١/٥٢٦-٥٢٧، ١/٥٦٣-٥٧٩.

(٢) النفح ١/٥٢٧، البيان المغرب ٢/٢٣٢.

وكان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة. وكان طولها من شرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع، وتكسيرها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع[1]. وكان يعمل في جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منها ثلاثمائة بناء، ومائتا نجار، وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع[2].

وذكر ابن حيّان أن مباني الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وأن أبوابها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب[3].

وبلغ عدد الدور في الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته، وعدد الفتيان الصقالبة (٣٧٥٠) وعدد النساء والخدم ستة آلاف وثلاثمائة امرأة[4].

وذكرت المصادر عن بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس أنه اشتمل على الحوض الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان

---

(١) النفح ١/٥٢٦.
(٢) نفسه ١/٥٦٤.
(٣) نفسه ١/٥٦٦.
(٤) البيان المغرب ٢/٢٣٢، فرحة الأنفس ٣٠١، نفح الطيب ٥٦٧.

الذي جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية وجعل الناصر على الحوض اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة، وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس[1].

واشتملت الزهراء كذلك على بحيرات للسمك، وذكر أن قوت الحيتان (السمك) في هذه البرك بلغ في كل يوم اثني عشر ألف خبزة[2]، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة[3].

وأورد ابن خلدون أيضا أن الناصر قد اتخذ في الزهراء "محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك"[4].

وبالإضافة إلى حدائق الحيوان والطيور والأسماك أنشأ الناصر المتنزهات[5].

---

(١) نفح الطيب ١/٥٦٩.
(٢) أعمال الأعلام ٣٨، نفح الطيب ١/٥٦٧-٥٦٩.
(٣) نفح الطيب ١/٥٦٧.
(٤) نفح الطيب ١/٥٧٨.
(٥) نفسه ١/٥٧٨.

وقد وصف ابن بشكوال مدينة الزهراء فقال " وهي من أهول ما بناه الإنس وأجله خطرا وأعظمه شأنا "[1].

وعني الخلفاء الأمويون إلى جانب ذلك بأنواع شتى من العمارة مثل القناطر[2] وتوسعة الشوارع[3] وبناء الأبراج عند الثغور[4]، لكن الحظ الأوفر كان لمدينة قرطبة، فقد اتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث كان يُمْشى فيها على ضوء السُّرُجِ المتصلة عشرة أميال[5].

وفي بعض الإحصائيات عن قرطبة أنه كان بها أيام الخلافة الأموية مائتا ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبع وسبعون دارا، وهذه دور الرعية، وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار، سوى دور الأجرة والحمامات والخانات، وكان عدد الحوانيت ثمانين ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسين حانوتا، وعدد الحمامات تسعمائة حمام وأحد عشر حماما.[6]

---

(١) نفسه ١/٥٢٥ .

(٢) المقتبس / تحقيق الحجي، ص ٦٤ .

(٣) نفسه ص ٦٧، ٧٠ .

(٤) البيان المغرب ٢/٢٤١ .

(٥) نفح الطيب، ١/٤٥٦، ٣/٢١٦، المعجب ٥٢٠ .

(٦) نفح الطيب ١/٥٤٠-٥٤١ .

أما **النهضة العلمية** التي شهدتها الأندلس خلال عهد الناصر وولده الحكم، فعليها شواهد جمة كالمكتبات ودور العلم ومجالسه وحركة التأليف واستقطاب العلماء من أقطار الأرض وإعمال الرحلة من الأندلس وإليها في سبيل العلم، فقد كانت قرطبة وسائر مدن الأندلس تمور بحركة علمية لا نظير لها شارك بها علماء من الأندلس وسائر البلدان، وساعد عليها اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء ورعايتهم له. وقد نبه إلى ذلك أبو الوليد الشقندي في رسالته في تفضيل الأندلس على بر العدوة حيث يقول إن ملوك الأندلس "كانوا يتواضعون لعلمائها ويرفعون أقدارهم ويصدرون عن آرائهم، وأنهم كانوا لا يقدمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالما"(١).

وورد في كتاب اقتباس الأنوار للرشاطي واختصاره لابن الخرّاط ما نصّه: "ولمّا كانت قرطبة على الصفة التي ذكرنا محل الإمارة ومستقر الخلافة كثر بها العلم والعلماء واستقر فيها الفضلاء والنبلاء وصارت دار هجرة للعلم ومكان رحلة لأولي الفهم، وكان من بها من الخلفاء رضي الله عنهم- يقيمون همم العلماء ويكبرون من يولّونه خطّة القضاء، ويختارون للخطّة أهليها ويوفونهم

(١) نفسه ٣/٢١٤.

حقوقهم فيها. فكانت للقضاة فيها المنزلة العالية والرتبة السامية مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم واقفين لدى نقضهم وإبرامهم . . . "[1] وورد في كتاب المعجب للمرّاكشي نقلا عن تاريخ ابن فياض أنه كان بقرطبة وحدها ثلاثة آلاف مقلّس، وكان لا يتقلّس عندهم في ذلك الزمان إلاّ من صلح للفتيا[2].

وقد انتشرت في الأندلس المكتبات الخاصة والعامة، فقال ابن سعيد عن قرطبة: "وهي أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات التعيّن والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب. . "[3].

واشتهرت مكتبة الخليفة الحكم المستنصر التي اشتملت على أربعمائة ألف مجلد، بلغت عدد فهارسها أربعة وأربعين مجلدا في كل مجلد خمسون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين[4]. وكان الحكم يبعث في طلب الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل معهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه،

---

(١) اقتباس الأنوار ٧٦-٧٧-١٧٩-١٨٠ .
(٢) المعجب ٥٢٠ .
(٣) نفح الطيب ٤٦٢/١ .
(٤) نفح الطيب ٣٨٥/١، ٣٩٥ المغرب ١٨٦/١ .

وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصبهاني وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة من قبل أن يخرجه إلى العراق. وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة والتجليد[١]. وكان الحكم يغري العلماء بأن يؤلفوا له كل في مجال تخصصه فكتب له أحمد بن فرج الجيّاني كتاب الحدائق[٢]، وألف له محمد بن حارث الخشني (ت ٣٦١هـ) كتبا كثيرة بلغت مائة ديوان[٣]، وألف محمد بن يوسف الوراق له ديوانا ضخما في مسالك إفريقيا وممالكها، وكتبا أخرى[٤]، وألفت له كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس[٥]، وألف له أبو علي القالي كتاب الأمالي[٦].

وقد التحق بالأندلس عدد من العلماء البارزين من أهل المشرق وإفريقيا مثل أبي علي القالي[٧]، وعلي بن محمد الأنطاكي (ت ٣٧٧هـ)[٨] وأبي الطيب محمد ابن أبي بردة البغدادي[٩] وعبد الملك ابن محمد السليماني المقدسي[١٠] وغيرهم كثير.

---

(١) نفسه ١/٣٨٦.
(٢) المغرب ٢/٥٦.
(٣) تاريخ علماء الأندلس ٢/١١٣.
(٤) نفح الطيب ٣/١٦٣.
(٥) نفسه ٣/١٧٤.
(٦) المغرب ١/١٨٦، الحلة السيراء ١/٢٠٠-٢٠١.
(٧) المقتبس ٥/٤٧٩.
(٨) تاريخ علماء الأندلس ١/٣١٦.
(٩) نفسه ٢/١١٤.
(١٠) نفسه ١/٢٧٥.

وإلى جانب المكتبات العامّة، انتشرت في الأندلس المكتبات الخاصّة، فقد ذكرت المصادر عن أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد ابن عيسى بن فطيس (ت ٤٠٢هـ) قاضي الجماعة بقرطبة أنه "كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً وكان لا يسمع بكتاب حسن إلا اشتراه أو استنسخه، ولما توفي اجتمع أهل قرطبة لبيع كتبه فأقاموا في بيعها مدة عام كامل في المسجد"[١].

وأوردت المصادر عن الوزير أحمد بن عبّاس أنه كان في مكتبته أربعمائة ألف كتاب[٢].

أما مجالس العلم فكانت تعقد في المدارس والمساجد وقصور الخلفاء حتى إن الحكم المستنصر أنشأ في قرطبة مكاتب لتعليم الأيتام جعل بعضها عند المسجد وبعضها في سائر الأرباض، وبلغت سبعة وعشرين مكتباً. وفي الإشارة إلى هذه المكاتب يقول محمد بن شخيص[٣]:

وساحةُ المسجدِ الأعلى مكلّلة ... مكاتباً لليتامى من نواحيها

لو مُكِّنَتْ سورُ القرآنِ من كَلِمٍ ... نادتْكَ يا خَيْرَ تاليها وواعيها

---

(١) الديباج المذهب ١٥٠.

(٢) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٦٦٥.

(٣) البيان المغرب ٢/٢٤١.

وكان طلبة العلم يحرصون على الأخذ عن كبار العلماء ويعملون إليهم الرحلة أينما كانوا حتى قيل إن أهل الطلب كانوا يدخلون على أبي عمر أحمد بن فرج الجيّاني في سجنه ويقرأون عليه اللغة وغيرها .[1]

وكان بسوق قرطبة عدد كبير من مجالس الخط، تعرضت لحريق عظيم سنة ٣٢٤هـ ثم أعادها الناصر وجعل لها سقفا من خشب مقرمد[2]. وفي الترجمة لأبي عبد الله محمد بن عيسى بن رفاعة المعروف بابن القلاس (٢٧٠-٣٣٧هـ) يقول الخشني في كتابه "أخبار الفقهاء والمحدثين" : ثم إن ولي عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين رحمهما الله، أرحله إلى قرطبة وأنزله الزهراء ووسع عليه وحباه وأكرم مثواه وذلك في ربيع الآخر من سنة ٣٣٦هـ وأوصله إلى نفسه الكريمة وسمع منه، وأذن لعامة الناس في الاختلاف إليه وأباح لهم الأخذ عنه، فقعد في جامع الزهراء، وكثر الناس عليه، فلم يكن أحدٌ ممن أدرك الشيوخ الأكابر بقرطبة يقول إنه رأى على أحد منهم مثل الجماعة التي كانت تأخذ عنه من كلّ طبقة وصنف، فإنه كان يكون عنده في اليوم الواحد المئون من الناس . . "[3].

---

(١) الصلة ١/٥ .

(٢) المقتبس ٥/٣٨٣ .

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين ١٧٨ .

وألف علمـاء الأندلس في كلّ فنّ، وقـد أشـار ابن حـزم في رسالتـه عن فضائل أهل الأندلس إلى أشهر مـؤلفاتهم في التاريخ والأدب واللغـة والفقـه والطب والفلسفـة والقـراءات والحسـاب والنجـوم والأنساب والجغـرافيا وتفسير القرآن والحديث النبوي وغيرها[1].

ومثلما كـان التـواصل العلمي بين الأندلس والمشرق في أبهى صوره من خلال الرحلات ومن خلال استجلاب علماء المشرق إلى الأندلس، فقـد كـان هنالك تواصل علمي بين الأندلس وجيـرانها الأوروبيين، فقد بعث رومانوس إمبراطور البيزنطيين هدية إلى عبد الرحمن الناصر كان فيها كتاب ديسقوريدس في النبات مصوّراً مكتوبا بالإغريقية، فلما لم يجد الناصر من يترجمه له طلب من الإمبراطور أن يرسل له مترجما، فبعث له براهب يدعى نقولا قام بترجمة الكتاب مع نفر من الأطباء بالأندلس. كما اشتملت هدية الإمبراطور على كتاب هيروسيس وهو باللاتينية[2]. وقد اقترنت النهضة العلمية في الأندلس بازدهار صناعة الورق فيها حيث ذكرت المصـادر أن الكاغـد الذي كـان يصنع في شـاطبـة لا نظير لـه بمعمـور الأرض وأنه عمّ المشرق والمغرب[3].

---

(١) وردت هذه الرسالة في نفح الطيب ٣/١٥٦-١٧٩ .

(٢) عيون الأنباء لابن أبي اصيبعة ٤٩٣-٤٩٤ .

(٣) نزهة المشتاق ١٩٢، الروض المعطار ٣٣٧، نفح الطيب ١/١٦٦ .

وكان إلى جانب هذه النهضة العلمية نهضة في **الحركة الأدبية** واكبت النهضة السياسية والعمرانية والاقتصادية والعلمية ونطقت بلسانها، ويشهد على هذه النهضة عدد جم من عناوين المؤلفات الأدبية التي وضعت في القرن الرابع الهجري. وقد أحصى الدكتور إحسان عباس أربعة عشر كتابا منها: طبقات الشعراء بالأندلس لعثمان بن ربيعة (ت ٣١٠هـ) وأخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموي، وطبقات الكتاب بالأندلس لسكن بن سعيد وكتاب الحدائق لابن فرج الجياني، وغيرها[١].

ويشهد على هذه النهضة الأدبية أيضا ذلك العدد الكبير من الأدباء المشاهير في هذا القرن مثل أحمد بن عبد ربه، ومحمد بن شخيص، وجعفر بن عثمان المصحفي، ويوسف بن هارون الرمادي، ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهم.

وقد كانت إنجازات الخلفاء الأمويين ميداناً لأهل الأدب يخوضون فيه، فقد نظم ابن عبد ربه أرجوزة في غزوات الناصر من سنة ٣٠١ إلى ٣٢٢[٢]، وورد في كتاب البيان المغرب: "وقد أطال الشعراء في مدحه وأطنبوا في شكره"[٣]. وأشار صاحب المقتبس

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي / عصر سيادة قرطبة ٧٠ .

(٢) انظر ديوان ابن عبد ربه ١٨١-٢١٠ .

(٣) انظر البيان المغرب ٢/٢٢٥ .

إلى اجتماع عدد من فحول الشعراء أمراء الكلام في بلاط الناصر الذين "برعوا في مديحه، وافتنوا في تقريظه وتوسعوا في ذكر عدالة سيرته وسماحة كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه ونفوذ عزمه وبصره بتدبير حروبه . . . "[1] ويضيف: "وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيذ مقدمهم معلمه في الصبا أبو عمر أحمد ابن محمد بن عبد ربه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس، وعبد الملك بن سعيد المرادي، وإسماعيل بن بدر، وأغلب ابن شعيب، وحسن بن حسان السناط، وغيرهم. ومن كبار الطارئين عليه من المشرق طاهر بن محمد المهند البغدادي ومحمد بن حسين الطبني الإفريقي، وغيرهما"[2].

ومما قاله ابن حيان في موضع آخر: "والشعر في الناصر لدين الله، رحمة الله عليه، كثير جدا محمول عن فحول مشاهير يقدمهم ابن عبد ربه وابن إدريس والمهند والطبني ونمطهم المستوسعون في تجويد صناعتهم، ففضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم والإحسان إليهم، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديوانا بذاته . . "[3].

وقد وقع الشيء ذاته للخليفة الحكم المستنصر بكثرة من أحاط به

---

(١) المقتبس ٥/٤٠ .
(٢) نفسه ٥/٤١ .
(٣) نفسه ٥/٤٩-٥٠ .

من الأدباء والشعراء الذين امتدحوه ووصفوا منجزاته العسكرية والعمرانية وغيرها. ومن هؤلاء الشعراء محمد بن شخيص وطاهر ابن محمد البغدادي المعروف بالمهند، ومحمد بن محامس الإستجي، وأحمد بن سليمان الكاتب البياني، ويوسف بن هارون الرمادي، ومحمد بن حسين الطبني. وكان الأدباء والخطباء يحتفلون مع الخلفاء بالأعياد وبالانتصارات وبقدوم وفود الأعاجم.

كما كان الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر يشاركان في مجالس الأدب ويتساجلان مع الشعراء، وأثر عنهما شعر ورسائل ومجاوبات وتوقيعات.

ولذلك قال أحد الأمويين في الأندلس:

ألسنا بني مروان كيف تبدّلت ... بنا الحالُ أو دارت علينا الدوائر

إذا وُلِدَ المولودُ منّا تهلّلت ... له الأرض واهتزّت إليه المنابرُ[1]

ومن القصائد المشهورة لابن عبد ربه في مدح عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٠هـ:

قد أوضح الله للإسلام منهاجا ... والناسُ قد دخلوافي الدين أفواجا

وقد تَزَيَّنَتْ الدنيا لساكنها ... كأنما أُلْبِسَتْ وشياً وديباجا

(١) رايات المبرزين ١١٣ منسوبة إلى الأمير محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، الحلة السيراء ٢٠٩/١، المغرب ١٩٠/١، وورد البيتان في المطرب ص١٢ منسوبين للحكم المستنصر.

يا ابن الخلائف إن المُزْنَ لو علمَتْ نـداك ما كـان منهـا الماء ثجاجـا

والحربُ لو علمَتْ بأسا تصول به مـا هيّجت من حُمَيّاك الذي اهتاجـا

مـات النفاقُ وأعطى الكفـرُ ذمّته وذلّت الخيلُ إلجاما وإسراجا

وأصبح النصرُ معقودا بألوية تطوي المراحل تهجيرا وإدلاجا

أدْخَلْتَ في قبة الإسلام مارقةً أخرجتها من ديار الشرك إخراجا

بجحفل تشرقُ الأرضُ الفضاءُ به كـالبحر يقذفُ بالأمواجِ أمواجا

يقودُه البدرُ يسري في كواكبه عرمرما كسوادِ الليل رجراجا

يَرَوْنَ فيه بروقَ الموت لامعةً ويسمعون به للرعدِ أهزاجا

غادرْتَ في عقوتَيْ جيّانَ ملحمة أبكيتَ منها بأرض الشرك أعلاجا

في نصف شهرٍ تركْتَ الأرضَ ساكنةً من بعد ما كان منها الظهرُ قد ماجا

وُجِدْتَ في الخبرِ المأثورِ منصلتاً من الخلائفِ خرّاجاً وولاّجا

تُملا بك الأرضُ عدلاً مثلما مُلئت جوراً وتوضح للمعروفِ منهاجا

يا بَدْرَ ظُلمتها يا شمس صبحتها يا ليثَ حومتها إن هائجٌ هاجا

خُلقْتَ من جوهرِ العقيانِ خالصةً ولم تكن نطفةً في الصُلْبِ أمشاجا

إنّ الخلافةَ لن ترضى- ولا رضيت- حتّى عقدْتَ لها في رأسك التاجا[1]

---

(١)ديوان ابن عبد ربه ٣٥-٣٧، تاريخ عبد الرحمن الناصر ٣٩-٤٠ .

والمتأمّل للأدب الأندلسي شعره ونثره في هذه الحقبة يلاحظ أنّ أصحاب الأقلام كانوا يقفون إلى جانب الخلفاء الأمويين في جهادهم ونهوضهم بواجباتهم واضطلاعهم بمسؤولياتهم تجاه الأمّة والأندلس وتشييد حضارتها. لكنّهم كانوا في الوقت ذاته يتصدّون لهم إن هم انحرفوا عن السبيل القويم. وهم بذلك يقدّمون نموذجاً متقدّماً للرسالة التي ينبغي للأدب أن يتبنّاها والدور الذي يجب أن يقوم به. ولعلّ قصص القاضي الأديب منذر بن سعيد البلّوطي مع الخليفة الناصر أوضح شاهد على ذلك.

ومن مظاهر نهضة الأندلس في القرن الرابع الهجري أنّ **المرأة الأندلسية** كان لها مساهمة فاعلة في تشييد صروح الحضارة الأندلسية، حيث شاركت في مختلف ميادين الأنشطة الثقافية والعلمية والأدبية، واشتهرت عددٌ من النسوة في مجالات مختلفة. ومن نساء الأندلس في القرن الرابع عائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية (ت ٤٠٠هـ)، كانت متفوقة في العلم والأدب والشعر، وكانت حسنة الخطّ تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، ولها خزانة علم (كتب) كبيرة، وكانت تمدح الملوك بشعرها[1].

ومنهنّ أيضاً حفصة بنت حمدون الحجاريّة من وادي الحجارة،

(١) الصلة ٢/٦٩٢-٦٩٣.

كان لها مكانة أدبية مرموقة ومنزلة علمية معروفة، وذكرها ابن سعيد وقال إنها من المائة الرابعة وإنّ بلدها يفخر بها وأنّ له شعراً كثيراً[1].

ومنهنّ كذلك لبنى كاتبة الحكم المستنصر، فقد كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضية خطّاطة جداً. وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة[2].

ومنهنّ أيضاً مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، قال صاحب الصلة إنها كانت حاذقة من أخطّ النساء، توفيت سنة ثمانٍ وخمسين وثلثمائة[3].

ومنهنّ الشاعرة صفيّة بنت عبد الله الريّي، كانت شاعرة أديبة موصوفة حسنة الخطّ، توفيت سنة سبع عشرة وأربعمائة وهي دون الثلاثين سنة[4].

ومثلما كان لبعضهنّ خزائن كتب، كان لبعضهنّ رحلات في سبيل العلم مثل راضية مولاة عبد الرحمن الناصر، وقد تزوّجت لبيباً الفتى وحجّا معاً سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ولقيا بعض العلماء بمصر وروى عنها بعض العلماء أيضاً[5].

---

(١) المغرب ٢/٣٧-٣٨.
(٢) الصلة ٢/٦٩٢.
(٣) نفسه ٢/٦٩٢.
(٤) نفسه ٢/٦٩٣، الجذوة ٤١٢.
(٥) نفسه ٢/٦٩٤.

وكان بعض النساء يعملن في التعليم مثل فخر المعلّمة التي اشتهرت بهذا الاسم لعنايتها بالتعليم. وقد توفيت سنة سبع عشرة وثلاثمائة[1]. وكذلك غالبة بنت محمد المعلّمة[2]. ومن أشهر المعلّمات الأندلسيات في القرن الرابع الهجري مريم بنت أبي يعقوب الشلبيّة، كانت تعلّم النساء وتقول الشعر، وقد مدحها الشاعر الطاهر بن محمد البغدادي المعروف بابن المهنّد[3].

وورد في كتاب المعجب للمرّاكشي نقلاً عن ابن فيّاض في تاريخه أنه قال: "كان بالربض الشرقي من قرطبة مائةٌ وسبعون امرأة كلّهن يكتبن المصاحف بالخطّ الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟!"[4].

ويفهم من أخبار النساء الأندلسيات في ذلك العصر، أن المرأة الأندلسية قد نالت قسطاً وافراً من الحريّة، فمثلما كانت تعمل في مجالات مختلفة مثل التعليم والكتابة في دواوين الخلفاء والنسخ ورواية العلم والطبّ، فكذلك نجدها شاعرة تقول الشعر في الأغراض كافّة وتمدح الخلفاء والولاة وتفد عليهم وتجالس الرجال

---

(١) ابن الفرضي ٣٥٣/١.
(٢) الصلة ٦٩١/٢.
(٣) الصلة ٦٩٤/٢-٦٩٥، جذوة المقتبس ٤١٢.
(٤) المعجب ٥٢٠.

في مـجـالس العلم والأدب. ولذلك نجـد في آخـر القـرن الرابع الهجري وفي القرن الخامس شاعرة مثل ولادة بنت الخليفة المستكفي تجعل من قصـرها مـجلساً أدبيّاً يتـوافد عليه أدباء الأندلس رجـالاً ونسـاءً للمطارحـات الأدبيّـة والمسـاجـلات الشـعـرية والحـوارات النقدية،[1] حتى قال ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في وصفها:

"وأمّا ولادة التي ذكرها أبو الوليد ابن زيدون في شعره فإنها بنت محـمد بن عبد الرحمن الناصري، وكانت في نساء أهل زمانها واحـدة أقرانهـا، حـضـور شـاهـد، وحـرارة أوابد، وحُسْنَ منظرٍ ومـخبر، وحلاوة موردٍ ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضـوء غرّتها، ويتـهالك أفـراد الشـعراء والكتاب على حـلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها.. الخ"[2].

---

(١) الذخيرة لابن بسام ق ١م١ ص ٤٢٩، المغرب لابن سعيد ١٤٣/١، الصلة ٦٩٦/٢.

(٢) الذخيرة ق ١م١ ص ٤٢٩–٤٣٠.

عوامل النهضة

اجتمعت على هذه النهضة التي شهدتها الأندلس في ميادين الحرب والسياسة والاقتصاد والعمران والعلم والأدب والثقافة، جملة من الأسباب كان على رأسها الحكم بالعدل بين الناس، وإيثار الخلفاء لرعيتهم والعمل من أجل مصلحتها، وكذلك الإعلاء من مكانة العلم والعلماء، والتسامح وصيانة كرامة الإنسان وحريته، والعناية بالشورى، ومساواة البنى الاجتماعية التي يتألف منها نسيج المجتمع الأندلسي بعضها مع بعض، وغير ذلك من الأسباب التي تعد من أهم أركان النهضة ومقوّمات نجاحها وانطلاقها. وقد قامت على هذه العوامل شواهد كثيرة تدل على انتشارها في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري:

١- **العدل**: ويتمثل انتشار العدل في الأندلس من خلال اهتمام الخلفاء الأمويين بالقضاء وتمحيصهم للقضاة قبل تعيينهم واختيارهم وتقديرهم للقضاة وحثهم على مراعاة العدل. وقد أشار المقّري في "نفح الطيب" إلى مكانة القضاة عند الأندلسيين فقال: "وأما خطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي، هذا وضعها في زمان بني أمية ومن سلك مسلكهم" [1].

---

(١) نفح الطيب ١/٢١٧-٢١٨.

وبسبب هذا الاهتمام وضع الأندلسيون مؤلفات في تراجم القضاة من أشهرها كتاب "قضاة قرطبة للخشني" و "تاريخ القضاة بالأندلس للنباهي المالقي" وغيرهما، والكتابان منشوران.

وتتضح عناية الخلفاء الأمويين بالعدل والقضاء من خلال ظهير تولية القضاء للقاضي محمد بن السليم الذي أصدره له الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٥٣هـ[٢] "ورسم له في كتابه رسوماً بدأ فيها بأمانة الله- عز وجل- إليه، وجعل الله الشهيد بها عليه، أمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأن يجعل كتاب الله أمامه ينظر فيه نظر المتفكر المعتبر، وأمره أمير المؤمنين أن يقتدي بسنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- التي بها عملت الأئمة، وعليها اتفقت الأمة. . . . .

وأمره أن يصلح سريرته فيها، . . . وأن يبرأ من الهوى، فإنه مضلة عن طريق الحق، وأن يجعل الناس في نفسه سواء إذا جلس للحكم بينهم حتى لا يطمح فيه الشريف، ولا ييأس منه الضعيف.

وأمره أن يتحفظ في حين وقوع الشهادات عنده، فلا يقضي بين المسلمين منها إلا بما أقامه به التحقيق على ألسنة العدول ذوي القبول، وإن استراب في شهادة أحدهم وقتاً ما، أن يبحث عنها،

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ٧٥-٧٦.

فإن ثبت أنه ارتشى أو شهد بالهوى فعليه أن يسقط شهادته . . .

وأمره أن يحترس بأموال اليتامى ولا يولي عليهم إلا أهل العفاف عنها وحسن النظر فيها، وأن يجدد الكشف والامتحان عن أموال الناس والأحباس واليتامى . .

وأمره أن يختبر كاتبه وحاجبه وخدمته، ويتفقد عليهم أحوالهم إذا غابوا عن بصره .

وأمره ألا يعجل في أحكامه، فمع العجل، لا يؤمن الزلل، وأن يرفع إلى أمير المؤمنين ما أشكل عليه الفصل فيه، ليصدر إليه من رأيه ما يعتمد عليه إن شاء الله . . "

ومن شواهد حرص الخلفاء الأمويين على العدل وجود وظيفة (أو خطة) صاحب المظالم وكان يتولاها وزراء كبار، مثل ذي الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد[1] وعبد الرحمن بن موسى ابن حدير[2]، وغيرهما .

وكان الخلفاء يكرمون القضاة ويقدرونهم، ومن الأمثلة على ذلك أن الخليفة الناصر كان عارفا بحق القاضي أحمد بن بقي بن مخلد (ت ٣٢٤هـ) ومجلاً له لم يعزله ولا كره شيئا من حاله، وكان

---

(١) المقتبس ٥/٤٦١ .

(٢) المقتبس / تحقيق الحجي ص ٨٦ .

قد ولي الصلاة قبل القضاء، ثم ولي القضاء، فاتخذ لخدمته أعوانا شيوخا أولي سداد سأل أن يرزقوا من بيت المال، وأجيب إلى ذلك . . [1].

وكان الخلفاء أنفسهم يحكمون بين الناس بالعدل، فقد قال الحجاري: "رفع للناصر أن تاجرا زعم أنه ضاعت له صرة فيها مائة دينار، ونادى عليها، واشترط أن يهب للآتي بها عشرة دنانير، فجاء بها رجل عليه سمة خير، ذكر أنه وجدها، فلما حصلت في يده قال: إنها كانت مائة وعشرة وأن العشرة نقصت منها أخذها الذي أتى بها. وأبى أن يدفع له ما شرط. فوقّع الناصر: صدق التاجر والرجل الذي وجد المال، ولولا صدق الرجل ما أتى بشيء مجهول، فاردد عليه المائة، وناد على مال التاجر، فإنه مائة وعشرة" [2].

وليس أدل على عدل عبد الرحمن الناصر أنه أنفذ حكم الموت على ابنه عبد الله عندما تواطأ مع قوم آخرين لقتل الناصر وأخذ الخلافة، وذلك في سنة ٣٣٨هـ [3].

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ٦٤ .
(٢) المغرب ١/١٨٥-١٨٦ .
(٣) البيان المغرب ٢/٢٢٨، أعمال الأعلام ٣٩، المغرب ١/١٨٦، الحلة السيراء ١/٢٠٧ .

ومن أهم مؤشّرات إقامة العدل في الأندلس خلال عصر الخليفتين الناصر والمستنصر أن هذين الخليفتين كانا يتقبّلان ما يحكم به القضاة والفقهاء في القضايا التي تخصّهما حتى لو كانت تلك الأحكام مجافية لرغبتهما، ومن الأمثلة على ذلك رفض هؤلاء الفقهاء بيع المحشر من أحباس المرضى بقرطبة للخليفة الناصر مخالفين رغبته في ذلك وغير آبهين بغضبه عليهم[1].

وقد قيل في عدل الخلفاء الأمويين في الأندلس شعر كثير، منه قول محمد بن حسين الطبني في الخليفة المستنصر: [2]

نظر الإله إلى البريّة رحمةً ... فاختار أفضلها لها وتخيّرا

ملك أقام العدل في أيامه ... سوقاً فصار الحق فيه متجرا

.... الخ

وقول محمد بن محامس الإستجي في مدح المستنصر: [3]

راقت ببهجة ملكه أيامنا ... فكأنهن عرائس وصنائع

فالعدل مبسوط ودين محمد ... غض وغصن الملك أخضر يانع

.... الخ

---

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٩٩-٤٠٢ . وانظر الملحق رقم (٧) .

(٢) المقتبس/ تحقيق الحجي ٦٠ .

(٣) نفسه ٦٢ .

٢- إيثار الخلفاء للرعية والعمل لمصلحتها والرفق بها :

ومثلما كان خلفاء بني أمية في الأندلس أشداء على الكفار فقد كانوا رحماء بالرعية حريصين على مصالحها التي كانوا يقدمونها على كل المصالح الأخرى، وكان حرصهم على كرامة الإنسان الأندلسي وهيبة الأندلس عظيماً، وقد قامت على ذلك كله شواهد لا حصر لها تتوزع بين: الرفق واللين في استنزال العصاة والمخالفين من الثوار في المدن الأندلسية، وخروج الخلفاء بأنفسهم في الغزو، والغياب عن قرطبة مددا طويلة، والمداومة على توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين والأيتام وتخفيف المغارم عن الناس، وتقديم الأندلسيين على غيرهم من وفود الأعاجم القادمين إلى قصر الخلافة.

أما الرفق واللين في استنزال العصاة والمخالفين فكانت سياسة واضحة للخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، فقد كانا يوصيان قادة الجيش باستخدام اللين وأن يطيلوا الحصار حول حصون العصاة لعلهم يستسلمون دون إراقة دماء. وكانا يعدان الثوار بالتعويض وحسن المعاملة والمكافأة، فعندما أرسل الحكم المستنصر قائده محمد بن قاسم إلى سبتة لمنازلة حسن بن قنون الذي ثار بها ومال إلى الفاطميين، أوصاه "باستعماله جده وجهده في

مغاورة ابن قنون، وأمره- إن أظهره الله تعالى- أن يأخذ بالعفو والصفح وإصلاح البلاد واستصلاح الرعية"[1].

وقد أخمد الناصر لدين الله ثورة إستجة سنة ٣٠٠ ودخل إشبيلية سنة ٣٠١هـ وفتح لبلة من صاحبها عثمان بن نصر سنة ٣٠٤ دون سفك دماء أو إباحة حرمة[2]. وبذلك مدحه ابن عبد ربه قائلا: [3]

وجاءك الفتح ما له مَثَلٌ وكل شيء يعزى إلى مِثْلِهْ
عفواً وصفواً بغير سفك دمٍ يقطر من بيضه ومن أسَلِهْ

وعندما سعى الناصر لإخضاع إشبيلية سنة ٣٠١هـ أوعز إلى قائد الحملة أحمد بن محمد بن حدير "بملاينة القوم واستمالتهم إلى الطاعة وإجمال موعودهم عليها وتأخير حربهم"[4].

وتفاديا لإراقة دماء الأندلسيين كان الناصر إذا استأمنه أحد من الثوار أمّنه وأمّره على حصونه، وقد استنزل بالأمان عددا كبيرا من هؤلاء الثوار، وكان إذا خاف عودة أحدهم إلى الثورة أخذه معه إلى قرطبة وأسكنه فيها وأجرى عليه رزقه "ليكون الناس أمة واحدة

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٤٥.
(٢) المقتبس ٥/٥٥، ٨٠، ١٢٩.
(٣) نفسه ٥/١٢٩.
(٤) المقتبس ٥/٧٠.

ورعية ساكنة وادعة "[1]. وكان قبل أن يحاصر أياً من حصون هؤلاء العصاة يعذر أهله فإن أبوا حاصرهم وأطال الحصار وأقام المباني والأبراج حول الحصن وعند مداخله حتى يستسلم أهله دون إراقة الدماء، وكان يكثر من العفو عنهم والصفح عن أسراهم ويحسن معاملة الأسرى.

أما خروج الخلفاء بأنفسهم إلى الغزو، فقد كان أوضح شاهد على أنهم كانوا يضحون بأنفسهم وأرواحهم وراحتهم من أجل الأندلس وأهلها، وكان الناصر كثير الخروج بنفسه إلى دار الحرب. وقد أمضى في غزوة مونش سنة ٣٠٨هـ ثلاثة أشهر[2]، وفي معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ التي وقعت فيها الهزيمة على المسلمين كاد الناصر أن يفقد روحه فيها بعد أن فقد درعه ومصحفه.

وكانوا في كثير من الأحيان يخرجون للغزو في رمضان ويدركهم عيد الفطر وهم في أرض الأعداء، فلا يتركون الغزو، وإلى ذلك أشار أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس في مدح الناصر لدين الله:

عزم الرحيل مصمّماً في عيده ... لشفاءِ غلّةِ سيفه الصمصامِ

---

(١) المقتبس ١٨٤/٥، ٢٣١، ٢٤٨-٢٤٩، ٢٧١.
(٢) المقتبس ١٥٩/٥، النفح ٣٥٣/١.

وأبى استساغة فطره من صومه ... ما لم يكن للسيف فطرُ صيامِ
يصلُ الترحُّلَ بالترحّل دائباً ... في الحلّ يحكمه وفي الإبرام
ليعزّ دين الله في كنف العلى ... ويذبّ عن حرم الهدى ويحامي
. . . . . . الخ[1]

وبعد عودته سالماً من هزيمة الخندق سنة ٣٢٧هـ أمر بصلب عدد من الفرسان الذين بادروا إلى الفرار فتسببوا بالهزيمة، وقد خاطبهم قبل صلبهم بما يدل على أن مصلحة الرعية هي هدفه الأسمى فقال لهم: "انظروا إلى هذا الخلق الضعيف- يشير إلى جموع العامة النظارة حولهم- هل أعطونا المقادة وصاروا لنا خولا ومادة إلا لذبنا عنهم وحمايتنا لهم، فإذا نحن ساعدناهم وساويناهم في الجبن عن عدوهم والتمكين من نواحيهم فأي فضل لنا عليهم؟! إن كنت أريد سلامة مهجتي في تضييع حريمهم فلا أتاحها الله. ذوقوا وبال أمركم"[2].

وفي رواية اخرى أنه أمر بالنداء عليهم "هذا جزاء من غشَّ الإسلام وكاد أهله وأخل بمصاف الجهاد"[3]. ووجد بخط الناصر أن أيام السرور التي صفت له طوال حياته أربعة عشر يوما[4].

(١) المقتبس ٥/٤٢-٤٣.
(٢) المقتبس ٥/٤٤٦.
(٣) أعمال الأعلام ٣٧.
(٤) المغرب ١/١٨٢، أعمال الأعلام ٤٠، نفح الطيب ١/٣٧٩.

وكذلك كان الحكم المستنصر يخرج للغزو بنفسه، قال ابن خلدون: "ولأول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور، فغزا الحكم المستنصر بنفسه، واقتحم بلد فرذلند بن غندشلب فنازل شانت اشتبين وفتحها عنوة واستباحها، وقفل، فبادروا إلى عقد السلم معه.." [1].

أما المداومة على توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين والأيتام وتخفيف المغارم عن الناس، فتقوم عليها أدلة وشواهد كثيرة، إذ يقال عن الناصر إن "من مناقبه كثرة جوده الذي لم يعرف لأحد قبله من أجواد الجاهلية والإسلام" [2] وأنه عندما وقعت المجاعة سنة ٣٠٣هـ "كثرت صدقات أمير المؤمنين الناصر رحمه الله على المساكين في هذا العام، وصدقات أهل الحسبة من رجاله، فكان الحاجب بدر بن أحمد أكثرهم صدقة، وأعظمهم بماله مؤاساة.." [3] وبدأ أمره أول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا[4]. وورد في المقتبس أنه في سنة ٣٢٩هـ "شكا أهل طرطوشة القاصية ثقل مغارمهم، مع مكانهم من الدنو إلى العدو الشديد الشوكة،

---

(١) نفح الطيب ١/٣٨٢-٣٨٣.
(٢) البيان المغرب ٢/٢٢٤، المغرب ١/١٨٤.
(٣) البيان المغرب ٢/١٦٨، المقتبس ٥/١٠٩.
(٤) نفح الطيب ١/٣٥٤.

ومقاساة معرتهم وسألوه النظر لهم، فأسقط الناصر لدين الله عنهم الزكوات والصدقات، وكتب لهم بذلك عهدا "[1].

وأما ابنه الخليفة الحكم المستنصر، فقد ابتنى للفقراء بيوتا قبالة باب المسجد الكبير الغربي بقرطبة[2]. كما أنه- وفي أول خلافته " حبس ربع ما جرته إليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الأندلس وأقاليمها، على ثغور الأندلس كافة، تفرق عليهم غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم.. "[3].

وفي سنة ٣٥٦هـ ابتنى الحكم المستنصر دار الصدقة بغربي الجامع واتخذها معهدا لتفريق صدقاته[4]. وفي سنة ٣٥٣هـ كانت بقرطبة مجاعة عظيمة فتكفل الحكم بضعفائها ومساكينها بما يقيم أرماقهم، وأجرى نفقاته عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة وبالزهراء[5].

وفي سنة ٣٦٤هـ حبس الحكم حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء[6]. وفيها أيضا أسقط سدس جميع المغارم

---

(١) المقتبس ٤٦٨/٥.
(٢) نفح الطيب ٥٥٦/١.
(٣) البيان المغرب ٢٣٤/٢.
(٤) البيان المغرب ٢٤٠/٢، نفح الطيب ٥٥٥/١-٥٥٦.
(٥) البيان المغرب ٢٣٦/٢.
(٦) البيان المغرب ٢٤٩/٢، المقتبس/ تحقيق الحجي ٢٠٧.

عن الرعايا بجميع كور الأندلس[1]، فنفذت عهوده بذلك في اليوم نفسه إلى القواد والعمال بكور الأندلس، وعهد أن يكون هذا السدس المسقط مكشوفا لجميع الرعايا، شائعا في الناس يستوي في معرفته العالم منهم والجاهل، فيسبق إلى كل من وجب عليه مغرم السدس الساقط منه قبل أن يأتي القابض، ترفيها لهم واهتبالا بمصالحهم، وأنفذ بذلك إلى الأقطار كتابا.. "[2].

وإلى جانب ذلك نقف على بعض الإشارات التي تبين اهتمام الحكم بالرعاية الصحيّة للأندلسيين، إذ أباح لطبيبه أحمد بن يونس ابن أحمد الحرّاني أن يعطي من خزانة أدويته من احتاج إليها من المساكين والمرضى، وكان يعمل في إعداد الأدوية والأشربة لدى الطبيب الحرّاني اثنا عشر صبيّاً صقلبياً[3].

وكان الحكم في سنة ٣٥٦هـ قد عهد بمخاطبة العمال بكور الأندلس "يعنفهم على جرأتهم ويحذرهم من سطوته وعقوبته إذ اتصل به أن بعضهم قد استزادوا زيادات فاحشات يعاملون بها الرعية ظلما لهم، فأنكر ذلك عليهم"[4].

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) انظر نص الكتاب في المقتبس تحقيق الحجي ص ٢٠٧-٢٠٨. وانظر الملحق رقم ٩.

(٣) عيون الأنباء ٤٨٧، طبقات الأطباء والحكماء ١١٣.

(٤) البيان المغرب ٢/٢٣٩.

وكـان المسـتنصـر دائم التـصـدق على ذوي الحـاجـة والسـتـر والمساكين وخاصة في شهر رمضان[١]. وكان شديد العناية بالأيتام، فلم يكتف ببناء المدارس والبيوت لهم وترتيب المعلمين لتدريسهم، بل كان كذلك يتابع المشرفين عنهم دائما، فقد قال لقاضيه منذر بن سعيد البلوطي يوماً: بلغني أنك لا تجتهد للأيتام وأنك تقدم عليهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم. قال: نعم... فقال له: وكيف تقدم مثل هؤلاء؟ فقال: لست أجد غيرهم.. الخ[٢]. وفي الظهير الذي أصدره المستنصر للقاضي ابن السليم أمره أن يحترس بأموال اليتامى ولا يولي عليهم إلا أهل العفاف عنها وحسن النظر فيها..[٣].

ومن صور الرفق بالرعية أن الحكم المستنصر "أنفذ كتبه إلى القواد وللعمال بأقطار مملكته بإنكار ما اتصل به من أن بعضهم يسفك دماء بعض بلا عهد ولا مشورة، وأنّ ذلك عظم عنده، وتبرأ إلى الله ممن أقدم عليه"[٤].

وكان الخليفة المستنصر يحرص على سلامة رعيته حتى وهم يسيرون في الطرق والأسواق، فقد مرّ في سنة ٣٦١هـ بالربض

(١) المقتبس / تحقيق الحجي ٢٣، ٧٦، ١٤٩، ٢٣٢.
(٢) تاريخ قضاة الأندلس ٧٣.
(٣) نفسه ٧٦.
(٤) البيان المغرب ٢/٢٤٠.

المعروف بقرن مرمل " وسلك المحجّة الضيّقة على شمال الخندق، فاغتصّت بأهل مركبه، وتأمّل آفة الضغاط فيها عند مثل موكبه، وأنه لا يؤمن عند الازدحام فيها التردّي في الخندق المصاقب لها، فعهد ساعة نزوله بابتياع الحوانيت التي على هذه المحجّة من أربابها ما بلغ ما يوافقهم من أثمانها وهدمها وضمّها إلى المحجّة كيما تتسع بالناس وتؤمن مضرّتها، نظرا منه للكافة، وامتراءً للحسنة، فنفذ ذلك سريعاً، وعظمت به المنفعة "[1]. ثم أمر صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بتوسيع المحجّة العظمى بسوق قرطبة لضيقها عن مخترق الناس وازدحامهم فيها، وهدّ الحوانيت المتحيفة لعرضها المضيقة لسبيلها، كيما ينفسح الطريق ولا يضيق بالواردين والصادرين، نظراً منه لكافة المسلمين واهتبالاً بمصالحهم. . "[2]

وإلى جانب الاهتمام بأمن الرعية ودمائها وعيشها ورفاهيتها وحقوقها، ألفينا لدى خلفاء الأندلس اهتماماً بكرامة الإنسان الأندلسي، وقد تمثل ذلك بتقديم الأندلسيين على غيرهم من وفود العجم في قصور الخلفاء. ومن الأمثلة على ذلك أنه في سنة ٣٦٢هـ " قعد أمير المؤمنين (المستنصر) على السرير بقصر الزهراء قعودا

---

(١) المقتبس / تحقيق الحجي ص ٦٧-٦٨.
(٢) المقتبس / تحقيق الحجي ص ٧٠-٧١.

فخما حافلا تام الترتيب حسن التهذيب لرسل وفود اكتملوا ببابه، شهده الوزراء وحجبه الحجاب، وقد أشعر القصاد فحضروا، وقُدِّمَ المسلمون في الإذن على غيرهم من رسل النصارى، فكان أول من توصل منهم رسل أبي العافية ثم رسل أحمد بن عيسى ثم رسل ميمون بن القاسم ثم رسل علي بن جنّون رئيس كتامة، ثم رسل جرثم، ثم توصل بعدهم محمد ويوسف ابنا أبي سفيان ثم محمد ابن منجفان الأصيل وغيرهم، وأذن بعدهم لرسل ملوك العجم فتوصل أولهم رسل شانجه بن غرسية بن شانجة صاحب بنبلونة ثم رسل فرذلند بن الشور ثم رسل بني غومس ثم رسل لذريق بن بلشك قومس العرب، فأنهوا ما تحملوه عن مرسليهم، واقتضوا أجوبتهم ودفعت إليهم صلاتهم "[1].

وحدث مثل ذلك في سنة ٣٦٣هـ عند جلوس المستنصر على سريره في الزهراء حيث أدخل وفود العرب أولا "ثم توصل إليه بعدهم رسل حلويرة عمة الطاغية أمير جليقية وكافلته "[2].

ومن صور العناية بالرعية والحرص على مصالحها أن خلفاء الأندلس كانوا لا يصبرون على وجود أحد رعاياهم أسيراً لدى

---

(١) المقتبس / تحقيق الحجي ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) نفسه ١٤٦ .

الإسبان، فكانوا يعملون على افتدائه واستخلاصه من أيدي الإسبان والإفرنج بكل الوسائل الممكنة، وقد أورد ابن عربي في كتاب المسامرات قوله "وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سرية، وتركت مالاً كثيراً، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيرا فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك"[(١)]. وكانت ملكة بنبلونة طوطة ابنة شنيير قد وفدت على الناصر سنة ٣٢٢هـ تطلب الصلح فاشترط عليها إطلاق سراح أربعة أسرى من بني ذي النون فطاعت له بذلك[(٢)].

وقد افتدى عبد الرحمن الناصر يحيى بن محمد بن الطويل صاحب وشقة بعد أن أسره الأتراك سنة ٣٣١هـ[(٣)]. وكذلك سعى كثيرا في استخلاص القائد محمد بن هاشم التجيبي حتى فك أسره[(٤)].

وكان الخليفة المستنصر يسرُّ كثيراً إذا تقرّب إليه ملوك الإسبان بإطلاق سراح أسرى المسلمين لديهم، وكان يبتهج بذلك ويكافئهم

---

(١) نفح الطيب ١/٥٢٣.
(٢) المقتبس ٥/٣٣٦.
(٣) المقتبس ٥/٣٣١.
(٤) المقتبس ٥/٤٤٦.

عليـــه، ولذلك أرسـل له بريل بن شنيـــر (Borrell Sunier) ملك برشلونة سنة ٣٦٠هـ سـفـيـره بون فلي Bonfillلتـجـديد الطاعـة والموالاة ومعه ثلاثون أسيراً من أسارى المسلمين.[١].

وكان بعض ميسوري أهل الأندلس يسعون في افتكاك أسرى المسلمين، ومن هؤلاء أبو عـمـر يوسف بن مـؤذن المعـافـري (ت ٣٠٩هـ) فقد كان "حكيما عاقلا ورعا وكان من الأجواد المنفقين في سبيل الله جل وعز وفي فك أسرى المسلمين ولـم يتقدمه أحد في بلده (وشقة) إلى مثل فعله في ذلك، وكان يعد له نحو من مائة أسير فك أسرهم من أرض الحرب بماله"[٢]. ولما امتحن عمر بن يوسف الأمـوي ابن الإمام (ت ٣٣٧) هو وابنه وأخوه بالأسـر تم افتـداؤهم بخمسة عشر ألف دينار[٣].

٣- صيانة الحريات:

وإذا كان خلفاء الأندلس حريصين على تحرير أسراهم من أيدي الأعداء فإنما يدل ذلك على اعتبارهم حرية الإنسان شأنا مهما يجب صيانته وحفظه، كما يدل على أنهم اعتبروا الإنسان وإنسانيته ورفاهيته ورخاءه وسلامته محور أنشطتهم السياسية والعسكرية

---

(١) المقتبس/ تحقيق الحجي ص ٢٠ .
(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين ٣٨٢، تاريخ علماء الأندلس ١/ ٢٧ (وفيه أنه فك أسر مائة وخمسين سبية) .
(٣) تاريخ علماء الأندلس ١/ ٣٢٣ .

والاقتصادية والعلمية وغيرها، مما جعل من الحضارة الأندلسية في القرن الرابع الهجري حضارة إنسانية الأبعاد. ولذلك كانت الحرية شرطا أساسيا من شروط قيام هذه الحضارة. غير أن مساحة تلك الحرية ومداها تظل متواضعة إذا قيست بمفاهيم الحرية في أيامنا، لكنها في الوقت نفسه تظهر عالية ومتميزة بالنظر إلى ما كانت عليه أوضاع الحريات في العالم في العصور الوسطى، فقد كان الرق في أوروبا ظاهرة واسعة الانتشار وتمتهن الإنسان امتهانا بغيضا. ففي حديثه عن أمم الجلالقة والفرنجة يقول إبراهيم بن القاسم القروي: "وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس، فلهم هنالك كثرة، وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين المتصل بهم، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد.. "[1].

وإذا ما نظرنا إلى الأندلس في القرن الرابع الهجري فإننا نجد صورا مغايرة ونجد الخليفة الحكم المستنصر يعتق عبيده وإماءه، فبعد الزيادة التي بناها في الجامع الكبير بقرطبة أول خلافته "أشهد بعتق كل مملوك من الذكران"[2]. وفي سنة ٣٦٤هـ أعتق الحكم نحوا من مائة رقبة من عبيد له فيه لبعضهم تدبير، ولباقيهم عتق بتل ومؤجل،

---

(١) نفح الطيب ٥٢٣/١.
(٢) البيان المغرب ٢٣٤/٢.

خلص به جميعهم من الرق، وعقدت بذلك الوثائق[1]. وقد أشار صاحب المقتبس إلى ذلك فقال: " أنفذ الخليفة إعتاق جمع كثير من عبيد له وإماء تنيف عدتهم على مائة رقبة، انعقد لكثير منهم عتق بتل، ولبعضهم عتق مؤجل ولبعضهم تدبير، خلص به جميعهم من الرق.. "[2].

ومما يدخل في باب الحرية احترام حرية الرأي والمعتقد، فقد كان لدى الأندلسيين في القرن الرابع الهجري قدر من ذلك، ومن الأمثلة عليه أن عبد الله بن الحسن المعروف بابن السندي مولى ابن المغلس من أهل وشقة "كان شديد العصبية للمولدين وعظيم الكراهية للعرب، وكان يتبع كل مثلبة تنسب إلى العرب وكل منقبة تنسب للمولدين والعبيد فيحفظها"[3]. ومع ما عرف عنه من ذلك إلا أنه "كانت له حظوة من السلطان وقدر جليل، وكان أمير المؤمنين يشاوره في أسباب الثغر وولاه قضاء وشقة وبربشتر ولاردة، فاكتسب بها أموالا عظيمة، وأفاد نعما جليلة"[4]. ومعنى ذلك أن رأيه ومعتقده الشخصي لم يحولا دون الاستفادة من معرفته وخبرته

---

(١) نفسه ٢/٢٤٩ .
(٢) المقتبس / تحقيق الحجي ٢٠٦ .
(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين ٢٢٧ .
(٤) نفسه ٢٢٦ .

ومقدرته.

ومن الشواهد ايضا أن أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بالأندلس أيام الناصر والمستنصر كان يتفقه بفقه أبي سليمان داود الأصفهاني، ويؤثر مذهبه الظاهري ويحتج لمقالته ويجمع كتبه، لكنه كان إذا جلس للقضاء حكم بمذهب مالك وأصحابه[1]. ومعنى ذلك أن ميله للمذهب الظاهري ودفاعه عنه واقتناءه لكتبه لم يحل دون تعيينه قاضيا للجماعة أو دون رعاية الخلفاء له.

٤- ومن عوامل النهضة في الأندلس في القرن الرابع الهجري ميل الخلفاء والفقهاء إلى **التسامح ونبذ التعصب والتطرف،** فقد أثرت عن قضاة الأندلس وفقهائها قصص تدل على ميلهم إلى اللين والتسامح ولكن دون تفريط، كما أثرت عن خلفاء الأندلس قصص مع رعيتهم تدل على نزوعهم إلى التسامح وسعة الصدر، ولكن دون إخلال بهيبة الحكم ومصالح العامة. كما تحدثت المصادر الأندلسية عن كثير من الفقهاء والقضاة ممن خاضوا في موضوعات تتصل بالحب والغزل والنساء ولهم مداعبات ومجاوبات شعرية ومساجلات وتوقيعات وملح ونوادر ومشاركة في مجالس الأدب والفكاهة. ولعل ذلك مما يرجع إلى رقة طباع الأندلسيين فضلا عن

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٣١٩.

صفتي الحرية والتسامح.

وقد أوردت المصادر عن القاضي أحمد بن بقي بن مخلد (ت ٣٢٤هـ) أنه كان من خير القضاة وأكثرهم رفقا وإشفاقا بحيث يقال إنه لم يقرع أحدا من الناس في طول مدة قضائه بسوط (وكان نحوا من عشرة أعوام) إلا رجلا واحدا مجمعا على فسقه، وكان شأنه في الحكومة أن ينفذ من الأمور الظاهر البين الذي لا ارتياب فيه، ويتأنى ويتمثل فيما خالجه من شك حتى تظهر له الحقيقة، أو يصل المتخاصمان إلى التصالح والتراضي[1].

وفي الترجمة للقاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الذي كان قاضيا على إلبيرة في أيام عبد الرحمن الناصر، قال القاسم بن محمد كاتبه "ركبنا مع القاضي في مركب حافل مع وجوه البلد، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج لنا من بعض الأزقة يتمايد سكرا، فلما رأى القاضي هابه، وأراد الفرار، فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط وأطرق، فلما قرب منه القاضي، رفع رأسه إليه، ثم أنشأ يقول:

ألا أيها القاضي الذي عمَّ عدله فأضحى به في العالمين فريدا

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ٦٣-٦٤.

قرأت كتاب الله . . . . ألف مرة		فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت أن تجلد فدونك منكبا		صبورا على ريب الخطوب جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة		تروح بها في العالمين حميدا
وإن كنت تختار الحدود فإن لي		لساناً على هجو الرجال حديدا

قال: فلما سمع القاضي شعره، وتبين له أدبه، أعرض عنه، ومضى لشأنه، كأنه لم يره[1].

وفي هذا السياق أيضا تناقلت المصادر قصة الشاعر يوسف بن هارون الرمادي مع الخليفة الحكم المستنصر، فقد رام المستنصر قطع الخمر في الأندلس وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله، فقيل لهم إنهم يعملونها من التين وغيره، فأمسك عن ذلك. وفي أمره بإراقة الخمور في سائر الجهات، قال يوسف بن هارون الرمادي قصيدة طويلة ينتقد فيها قرار الحكم، ومن أبياتها[2]:

بِخَطْبِ الشاربين يَضيقُ صدري		وتُرْمِضُني بليّتهم لعمري
وهل هم غيرُ عشّاقٍ أصيبوا		بفقد حبائب ومُنُوا بِهَجْرِ

(١) تاريخ قضاة الأندلس ٦١ .
(٢) انظر أبيات القصيدة في شعر الرمادي ٧٢-٧٥، المعجب ٣٩، جذوة المقتبس ١٤-١٥، رسائل ابن حزم ٢/١٩٤-١٩٦ .

أعشّاقَ المُدامةِ إن جزِعْتمْ لفرقتها فليس مكان صبر

سعى طلّابكم حتى أريقت دماءً فوق وجه الأرض تجري

تضوّع عَرْفُها شرقا وغربا وطبق أفق قرطبة بعطر

فقل للمسفحين لها بسفح وما سكنته من ظرف بكسر

وللأبواب إحراقا إلى أن تركتم أهلها سُكَّانَ قَفْرِ

تحريتم بذاك العدل فيها بزعمكم فإن يك عن تحرّي

فإن أبا حنيفة وهو عدل وفرّ عن القضاء مسير شهر

فقيه لا يدانيه فقيه إذا جاء القياس أتى بدرّ

وكان من الصلاة طويل ليل يقطّعه بلا تغميض شفر

وكان له من الشُرّاب جارٌ يواصل مغربا فيها بفجر

وكان إذا انتشى غنّى بصوتِ المضاع بسجنه من آل عمرو

" أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر "

. . . . . الخ

ثم يمضي في إيراد قصة أبي حنيفة مع جاره السكير، إذ افتقد أبو حنيفة صوته عدة ليال فسأل عنه، فعرف أنه محبوس، فذهب إلى

الحبس وأطلقه.

ومن أشهر قصص التسامح وسعة الصدر قصة القاضي منذر بن سعيد البلوطي مع الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما انشغل الأخير بالبنيان وتغيب عن شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه، ثلاث جمع متواليات، فانتقده منذر بن سعيد في خطبته حيث ابتدأها بقوله تعالى ﴿أتبنون بَكل رِيع﴾ إلى قوله تعالى ﴿تكُنْ من الواعظين﴾(الشعراء ١٢٨) ثم وصله بقوله: فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار. ثم مضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه، حتى وصل إلى قوله تعالى﴿أفمن أسسَ بنيانه ﴾(التوبة ١٠٩). **فعرف** الناصر أنه المقصود بهذه الخطبة، فبكى وندم على ما سلف من تفريطه، إلا أنه غضب على منذر لأنه أفرط في تقريعه، فشكا ذلك لولده الحكم وقال: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف علي وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني. واستشاط غيظا عليه، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء. وقال له الحكم: فما الذين يمنعك عن عزل منذر عن

الصلاة؟ فزجره الناصر وانتهره وقال: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه- لا أم لك- يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟! هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعةشفيعا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أحرجني، فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلا إلى كفارة يميني، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض منه أبدا. (١)

ولما بنى الناصر القبة التي تشبه الصرح الممرد وجعل قراميدها من الذهب والفضة، جلس فيها يوما وأخذ يفتخر بها بين الوزراء وأهل الخدمة، فأشادوا كلهم بها، إذ دخل القاضي منذر واجما ناكس الرأس، فلما سأله الناصر عن القبة، أقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له: " والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضّلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين" . فانفعل عبد الرحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلتني منزلتهم؟! قال:

---

(١) نفح الطيب ١/٥٧٠-٥٧١، المغرب ١/١٨٣، تاريخ قضاة الأندلس ٦٩-٧٠، أعمال الأعلام ٣٩، مطمح الأنفس ٢٤٥-٢٤٨، اقتباس الأنوار للرشاطي ٤١، أزهار الرياض ٢/٢٧٧. وانظر الملحق رقم ٣.

نعم، أليس الله تعالى يقول ﴿ولولا أن يكونَ الناس أمةً واحدة لجعلنا لمن يكْفُرُ بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يَظْهرون﴾ (الزخرف ٣٣). فوجم الخليفة وأطرَق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى. ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين أجل جزائه، وكثر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو الحق[1].

ومن قصص منذر بن سعيد مع الخليفة الناصر حيث يمتزج تسامح الخليفة مع عدل القاضي وجرأته، قصة أيتام أخي نجدة، وهي أن الخليفة احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه، فوقع استحسانه على دار كانت لأولاد زكريا أخي نجدة، وكانوا أيتاما في حجر القاضي، فأرسل الخليفة من قومها له بعدد ما طابت نفسه وأرسل ناسا أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلا بأمر القاضي، فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد، ومنها الغبطة، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهي فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما

(١) نفح الطيب ١/٥٧٣-٥٧٤، تاريخ قضاة الأندلس ٧١-٧٢، مطمح الأنفس ٢٥٧-٢٥٩، الروض المعطار ٩٥، اقتباس الأنوار للرشاطي ٤٢-٤٣، أزهار الرياض ٢/٢٨٠. وانظر الملحق رقم (٤).

تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع وإلا فلا. فنقل جوابه إلى الخليفة. فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام ثورتها، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها. ففعل ذلك وباع الأنقاض فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان، فاتصل الخبر به فعز عليه خرابها وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي منذر وقال له: أأنت أمرت بنقض دار أخي نجدة؟ فقال له: نعم. فقال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: أخذت فيها بقول الله تعالى ﴿أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملونَ في البحر، فأردتُ أن أعيبها، وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينة غصبا﴾[1] مقوموك لم يقوموها إلا بكذا، وَبذلك تعلق وهمك، فقد نض في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمام فضلا، ونظر الله تعالى للأيتام. فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك، وقال: نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا.[2]

٥- استثمار التنوع السكاني: استفاد الخليفة الناصر وابنه الخليفة

---

(١) سورة الكهف ٧٩.

(٢) نفح الطيب ١٦/٢، مطمح الأنفس ٢٤٢-٢٥٤. وهناك قصص كثيرة في التسامح لدى الناصر والمستنصر أوردتها المصادر الأندلسية (انظر قصة ابن المشاط مع الناصر في ترتيب المدارك ٤٣١/٢-٤٣٢) وانظر قصص الفقيه أبي إبراهيم المشاور مع الناصر والمستنصر (أزهار الرياض ٢٨٢/٢-٢٨٦). وانظر الملاحق ٥-٨.

المستنصر من التنوع الثقافي والاجتماعي الذي تميّزت به الأندلس حيث كان المجتمع الأندلسي يتألف من أجناس ومذاهب شتى من عرب وبربر وموالي وصقالبة وإسبان ويهود ومسيحيين وغيرهم، وكان التداخل بين المسلمين وأهالي البلاد الأصليين سواء من أسلم منهم أو من ظل على دينه، تداخلا عميقا وفريدا يصعب بسببه أن يحدث تفريق بين الطرفين، وكان بينهما تعايش لا نظير له رغم الاختلاف الثقافي والديني وغيره، فقد أصبح الجميع أندلسيين في ظل سلطة عادلة عملت كل ما في وسعها لرفاهية الرعية ورخائها وأمنها. وقد عملت هذه السلطة على إتاحة الفرصة لكل طائفة من طوائف المجتمع الأندلسي لكي تساهم في الإنجاز الحضاري للأمة الأندلسية في الحقل الذي تحسنه، فالصقالبة كانوا يعملون في قصور الخلفاء حجاباً وجنوداً وخدماً، وأما المعاهدة من المسيحيين فقد عملوا في إدارة التجمعات التي يقطنون فيها فظهر منهم أساقفة ورجال دين، وكانوا يعملون في الترجمة بين الأندلسيين والأوروبيين وبخاصة ترجمة الأعمال العلمية والترجمة للبعثات الدبلوماسية، كما عملوا سفراء للخلفاء الأمويين لدى الملوك الأوروبيين، وعملوا كذلك في الطب. وأما اليهود فعمل كثير منهم سفراء بين الأندلس والدول الأوروبية المجاورة. وأما الموالي فكان منهم القادة والولاة والحجاب.

وممن اشتهر من الموالي أيام الخليفة الناصر مولاه قند الذي كان

قـائدا بطليطلة وفـتح الله على يديه بعض الفـتوح في جليـقـيـة سنة ٣٣٦هـ[١]. وولي قند والمولى دري خطة العرض للخليفة الناصر[٢].

وفي سنة ٣٠٤هـ ولى الناصر على مدينة أبذه عريفا من العجم يعرف بابن بزنت أقام بها مدة[٣].

وكان الناصر قد أخمد ثورة في ناحية طرش سنة ٣٠٩هـ قام بها سكانها من المسيحيين فدخلها بكتاب أمان " وألحق من رجالهم في ديوان الجند من استحق الإلحاق وشهر بالبأس "[٤]. كما استعان الناصر والمستنصر بالنصارى في الترجمة بين الخلفاء والوفود الأوروبية، واستعانوا بهم أيضا في مرافقة تلك الوفود، فعندما وصل أردون بن أذفوش سنة ٣٥١هـ على الحكم المستنصر حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، منهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما[٥]. وكان المترجم عن أردون وليد بن خيزران. [٦]

ورافق وفداً آخر قاضي النصارى أصبغ بين نبيل وأسقفهم

---

(١) البيان المغرب ٢/٢١٤.
(٢) المقتبس ٥/٩٧.
(٣) المقتبس ٥/١٣١.
(٤) المقتبس ٥/١٧١-١٧٣.
(٥) نفح الطيب ١/٣٩٠.
(٦) نفسه ١/٣٩١.

عيسى بن المنصور وقومسهم معاوية بن لب ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم يترجمون عنهم ولهم(1). وهناك أمثلة أخرى كثيرة(2).

ويظهر أن ملوك الإسبان كانوا يطمئنون لتدخل مسيحيّي الأندلس في أية مفاوضات بينهم وبين الأندلسيين، فعندما كان محمد بن هاشم التجيبي أسيرا في يد رذمير بن أردون " ورد كتاب محمد بن هاشم من جليقية إلى الناصر لدين الله يسأله توجيه أكابر من أساقفة أهل الذمة بالأندلس للاستيثاق له من الطاغية رذمير في فدائه، فأمر الناصر لدين الله بإحضار عباس بن المنذر جاثليق أسقف إشبيلية، ويعقوب بن مهران أسقف بجانة، وعبد الملك بن حسّان أسقف إلبيرة، فلما اجتمعوا بقرطبة أوصلهم إلى مجلسه، وأمرهم بالخروج إلى جليقية.. "(3).

وأما اليهود فكان الخلفاء يستعملونهم في الكتابة وفي السفارات؛ ففي سنة ٣٢٨هـ عقد حسداي بن إسحق الإسرائيلي الكاتب السلم مع شنيير بن غيفريد الإفرنجي صاحب برشلونة

---

(١) المقتبس / تحقيق الحجي ٦٤.
(٢) نفسه ٢٢، ١٣٨.
(٣) المقتبس ٥/٤٦٧.

وأعمالها على الشروط التي ارتضاها الناصر لدين الله[١].

وعندما وقع محمد بن هاشم التجيبي قائد جيش الناصر في معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ أسيرا في يد الجلالقة، حاول الناصر جهده لاستخلاصه من يدي رذمير بن أردون "فرمى العلج رذمير بحسداي هذا"[٢]. وقد وصف ابن حيان حسداي بقوله: "وهو واحد العصر، الذي لا يعدل به خادم ملك في الأدب وسعة الحيلة ولطف المدخل وحسن الولوج"[٣]. ومن اليهود أيضا الحجاج بن المتوكل اليهودي الذي ولاه الحكم المستنصر سنة ٣٦٣ على قسامة قومه يهود أليسانه[٤].

وقد أورد ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء أسماء عدد كبير من الحكماء والأطباء والعلماء من المسيحيين واليهود ممّن كانوا يعملون في بلاط الناصر والمستنصر وينالون حظوة كبيرة لديهما[٥].

يقول ميكيل دي إيبالزا في دراسته "المستعربون: أقلية مسيحية

---

(١) المقتبس ٥/٤٥٤.
(٢) نفسه ٥/٤٦٦.
(٣) نفسه ٥/٤٦٦.
(٤) المقتبس/تحقيق الحجي ١٤٩.
(٥) انظر: عيون الأنباء ٤٨٥-٥٠٠، وفي ترجمته لحسداي بن إسحق اليهودي ذكر ابن أبي أصيبعة ص ٤٩٨ أنه خدم الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ونال عنده نهاية الحظوة.

مهمة في الأندلس المسلمة" : "والأمر الأكثر أهمية بالنسبة للأمويين كان الحفاظ على التجمع المسيحي المستعرب كرمز لسياستهم السياسية والدينية، وللتشبه بأسلافهم الأمويين في دمشق، وللاستفادة من المستعربين المسيحيين في حوارهم مع الدول المسيحية الأخرى. وهذا الجانب من السياسة الإسلامية ينطبق بشكل خاص على قرطبة، حيث كان الأساقفة المسيحيون يقومون بدور السفراء والمترجمين حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي"[1].

وتتحدث مارغريتا لوبيز غوميز في دراسة لها بعنوان: "المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس" عن دور المسيحيين في الأندلس فتقول: "كما تمتعت جالياتهم بحكم ذاتي كامل دون أن يتصادم ذلك مع القضاء الإسلامي، ورأس تلكم الحكومات الذاتية موظف رفيع المستوى من أصل إسباني (قوطي) يدعى كونت أو قومس، في حين اضطلع (الأسقف) بالإدارة الدينية لكل جالية من جاليات المستعربين التي كان لها أيضا رقيب يتولى القضاء فيها أسماه المسلمون قاضي العجم"[2].

وتقول أيضا: "لقد تمتعت جالية المستعربين بالهدوء والاستقرار

(١) الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ١/٢٤٥ .
(٢) نفسه ١/٢٧٠ .

إبان حكم الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩١٦م) وخفت حدة تلك الدعوات القومية، ذلك أن الخليفة بسعيه إلى منح الأندلس كيانا سياسيا مستقلا عرف كيف يوحد بين عناصر رعاياه المختلفة والمتضاربة بفطنة كبيرة، وأن يجد تعايشا سلمياً طيبا، يمكننا أن نسميه اليوم بما بعد القطرية عن طريق إدارة حكم قائم على العدالة والحزم "[١]. وتقول في موضع آخر: "وربما يسعنا أن نتخيل المشهد في كلّ مدينة من مدن الأندلس عبر دروبها المركزية الضيقة وأن نرى فيها احتشاد الجموع من كل جنس ولون ولسان وهي تغدو وتروح إلى السوق والحمامات، أو إلى المسجد والكنيسة والكنيس، الأساقفة والقسس والرهبان النصارى بأزيائهم وعلاماتهم المميزة والدالة على درجاتهم كما كانت الحال في زمن القوط الغربيين، والمستعربون من غير الدينيين بحللهم الخاصة، ونساؤهم متّشحات ولكن دون نقاب يغطي أوجههنّ كالمسلمات، وبمرور الوقت راح النصارى يرتدون ملابس المسلمين، كما نقل هؤلاء بدورهم الكثير من أزياء النصارى.. "[٢].

٦- **الشورى** قلّما قامت نهضة للدول بالاستبداد بالرأي والتفرد

---

(١) نفسه ٢٧٤/١.

(٢) نفسه ٢٧٠/١.

بالقرار دون الرجوع إلى الثقات وأهل العلم والمعرفة واستشارتهم في مصالح الأمة. وقد كان الخليفة الناصر والخليفة المستنصر كثيرا ما يرجعان إلى مستشاريهم قبل اتخاذ القرارات أو القيام بالأعمال التي تهم الأندلسيين. وكان لدى كل واحد منهما عدد من العلماء والفقهاء يعرفون باسم "المشاورين" كانوا يجالسونهم ويستدعونهم في المناسبات العامة وعند الحاجة، ولهم ترتيب في الجلوس عند جلوس السلطان على سريره[1]. وفي الترجمة لعبد الله بن الحسن المعروف بابن السندي يقول الخشني "وكانت له حظوة عظيمة من السلطان وقدر جليل، وكان أمير المؤمنين رحمه الله يشاوره في أسباب الثغر"[2]. ومن الروايات الدالة على الاهتمام بالشورى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر جلس يوماً في قصر الزهراء مع خواصّ وزرائه للمشورة مجلساً طويلاً غشيت الشمس فيه. فقال: الصواب أن يُتحول إلى الظلّ، وقام ناهضاً يريد مجلساً آخر[3] . . . الخ.

وفي الزهرة الثالثة والثمانين يقول: الأمور التي كانت تحار فيها خلفاءُ بني أمية بالأندلس لا ينفذونها إلاّ عن مشاورة ثلاثة من الناس، وهم: قائد الجند بسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى، لعظمة

(١) انظر نفح الطيب ١/٣٧٦.
(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين ٢٢٦.
(٣) الزهرات المنثورة ٩٠.

ذلك الموضع وكونه الثغر ومحلّ الدفاع عن الأندلس، فلم يكونوا يقدمون له إلا من اشتهرت نجدته وغناؤه، وكان فيه انتهاضٌ بما حمّل من ذلك الوظيف، والقاضي بقرطبة حضرة الخلافة وموضع توفّر العلماء لما كان يُحتاج فيمن يتقدّم لقضائها من استجماع شروط الكمال وكريم الخلال ورسوخ القدم في العلم والدين والحكمة، وقائد الأسطول بالمريّة لأنها كانت دار صنعة الإنشاء بالأندلس ولتوسّطها في بلادهم، فكان في مدة بني أمية قائدُ أسطولها قسيمَ الخليفة في ملكه، ذاك ملك البرّ، وهذا ملك البحر[1].

وكانت لدى خلفاء بني أمية وظيفة تعرف بكتابة الرأي، وكان عمر بن أحمد بن فرج "كاتب الرأي"[2]، كما ولى الناصر عيسى ابن فطيس في الكتابة العليا مع كتابة الرأي في سنة ٣٢٢هـ[3]. وكان أصحاب كتب التراجم يصفون بعض الأعلام أحيانا بأنهم موصوفون بالرأي[4] أو من أولي الرأي[5].

ويتحدث صاحب المقتبس عن أحداث سنة ٣٦١هـ ويذكر منها

(١) الزهرات المنثورة ١٢٨-١٢٩.
(٢) البيان المغرب ٢/١٧١.
(٣) المقتبس ٥/٣٥٤.
(٤) انظر المقتبس ٥/١١١ في الحديث عن إسحق بن محمد بن أبي العاصي.
(٥) انظر المقتبس / تحقيق الحجي، ص ٧٨.

أن الخليفة الحكم المستنصر استدعى مولاه زياد بن أفلح صاحب الخيل وهشام بن محمد بن عثمان صاحب الشرطة، فركبا إلى قصر الخلافة وتوصلا إلى الحكم، وعرفاه بتمام أهبتهما للغزو في الصائفة، "فحد لهما في وجههما ذلك حدودا أمرهما بالتزامها من استشعار الحزم واجتناب التواني والأخذ بأمحض الرأي المقارن للعزم، واستخارة الله تعالى في جميع الأمر، والإفاضة مع أولي الرأي فيما يقع عليه التدبير.." [1]

وكان إجماع الناس على أمر ما يلقى قبولا من الخلفاء، فبعد أن أسر عبد الرحمن الناصر والي بجانة قاسم بن علي سنة ٣٠٣هـ قدّم أهل بجانة على أنفسهم عبد الرحمن بن مطرف الطائي، اتفقوا عليه، وكتبوا إلى السلطان بإجماعهم عليه، فأقرهم على ذلك ووافقهم[2].

٧- الإعلاء من شأن العلم والعلماء:

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر من أكثر سلاطين الأندلس رعاية للعلماء وإكراما لهم وتقديرا لمكانتهم، لأن في إكرامهم إكراما للعلم والمعرفة وتأكيدا على دورهما في بناء

---

(١) نفسه، ص ٧٨.
(٢) المقتبس ١١٢/٥.

الدول وتحصينها وتقدّمها. وقد نوه الشقندي في رسالته "في تفضيل الأندلس على بر العدوة" بمكانة العلماء عند الأندلسيّين فقال مشيراً إلى الأندلس: "وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ويرفعون أقدارهم، ويصدرون عن آرائهم، وأنهم كانوا لا يقدمون وزيرا ولا مشاورا ما لم يكن عالما، حتى إن الحكم المستنصر لما كره له العلماء شرب الخمر همّ بقطع شجرة العنب من الأندلس، فقيل له: فإنها تعصر من سواها، فأمسك عن ذلك.." [1]

وكان الخليفة الحكم على وجه الخصوص من أكثر الناس رعاية للعلم والعلماء، وفي التنويه به يقول ابن الأبار نقلا عن ابن حيان: "ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها، أفاء على العلم، ونوه بأهله، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما، جرى ذكر هذا في كتب تواريخهم. وبعث إلى أبي الفرج الأصبهاني القرشي المرواني ألف دينار عينا ذهبا، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني، وما لأحد مثله، ووصل

---

(١) نفح الطيب ٣/٢١٤.

بذلك المال رحمه، إذ كان قسيمه في المروانية، ومن ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم. وألف له أيضا أنساب قومه بني أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم، فأحسن فيه جدا، وخلد لهم مجدا، وأرسل به إلى قرطبة وأنفذ معه قصيدة حسنة من شعره- وكان محسنا- يمدحه بها، ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش، فجدد له عليه الصلة الجزيلة.

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق (بحثا) عنها، ومن وراقيه ببغداد محمد ابن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة. وكان مع هذا كثير التهمّم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلما تجد له كتابا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه- إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه- نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن، وكان موثوقا به مأمونا عليه، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه

ويحاضرون به. قلت: وقد اجتمع لي من ذلك جزء مفيد مما وجد بخطه، ووجدت أنه يشتمل على فوائد جمة في أنواع شتى. قال: وكان قد قيد كثيرا من أنساب أهل بلده، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أخْمِل ذكره قبل ولايته، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك، ويؤلف من الكتب، ويرد كل ذي نسب إلى نسبه، وخرج ذلك بالعلم، فتم له من ذلك ما أراد، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد.

وقال أبو محمد ابن حزم في كتاب جمهرة الأنساب من تأليفه، وذكر الحكم: اتصلت ولايته خمسة عشر عاما في هدوء وعلو، وكان رفيقا بالرعية، محبا في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم. وأخبرني تليد الفتى- وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس- أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط "[1].

ومن عنايته بالعلم والعلماء أن الحكم المستنصر "كان مستجلبا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروي عنهم"[1]. واجتمع عنده بقرطبة جملة من

---

(١) الحلة السيراء ١/٢٠١-٢٠٣.

علماء العرب من مصر والعراق والقدس والشام وحلب وغيرها[٢].

ومن الأدلة على العناية بالعلماء أنه عند وفادة أبي علي القالي على الأندلس عن طريق بجانة سنة ٣٣٠هـ "كتب الأمير الحكم ولي العهد.. إلى هارون بن موسى كاتبه ووزيره، وهو يومئذ ببجانة لبعض أموره، بتلقي إسماعيل هذا وتبشيره، وإكرامه وإقدامه معه إلى قرطبة، والتقدم إلى كل عامل يمر في طريقه بالاحتفال في مبرته والانتهاء في تكريمه"[٣].

وفي الترجمة لأبي إبراهيم اسحق بن إبراهيم بن مسّرة التجيبي المشاور تذكر المصادر أن الحكم المستنصر كان معظماً له، وأنه كان إذا دخل على الحكم مدّ رجليه أمامه واعتذر بكبر سنّه فكان الحكم يقول له: لا مؤونة عليك منّا، اقعد كيف شئت[٤].

ومن عناية الناصر بالعلماء أنه لما عرف فضل أحمد بن عبادة بن علكدة (ت ٣٣٢هـ) أمر باستخلافه على صلاة الجماعة وأمره بالجلوس في الجامع لفتوى الخاصة والعامة، وكان له عنده جاه

---

(١) نفسه ١/٢٠١.
(٢) انظر أمثلة على ذلك في: تاريخ علماء الأندلس ١/٣١٦، ١/٢٧٥، ٢/١١٣، ٢/١١٤، ٢/١١٥، ٢/١١٦.
(٣) المقتبس ٥/٤٧٩.
(٤) ترتيب المدارك ٢/٤٢٥.

عريض وحرمة وافرة، وأفضل ما كان لعالم عند إمام عادل[1]. كما كان الناصر يكرم أحمد بن خالد بن الحباب لفضله ويعظمه لعلمه ويرفقه ويجدي عليه كثيرا[2]. وكذلك كان يكرم أبا عبد الله محمد ابن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرباحي من علماء العربية، وكان أثيرا لديه، ومعظما ومبجلا عند طبقات الملوك[3].

ومما يدل على مكانة العلماء عند الخلفاء ما وقع لأبي إبراهيم المشاور مع كل من الناصر والمستنصر، فقد كان معظما عندهما، إلا أنه عندما وجه له الناصر دعوة لحضور الحفل الذي أقامه بمناسبة إعذار بعض أحفاده، لم يلب دعوة الناصر، بحجة أن في ذلك امتهانا لمثله من العلماء، فاستحسن الناصر اعتذاره. وقد وجه الحكم في طلبه مرة وكان حينذاك في مجلس علمه الحافل، فلم يستجب للخليفة إلا بعد أن أنهى درسه، وطلب أن يفتح له باب خلفي من أبواب القصر اختصارا للطريق، ففتح له[4].

٨- ومن شروط قيام النهضة ونجاحها أن يكون لدى القائمين بها

---

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين ١٧٨ .

(٢) نفسه ص ١٨ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٣٤٠ .

(٤) نفح الطيب ١/٣٧٦-٣٧٩، ترتيب المدارك ٢/٤٢٥-٤٢٩ .

قدر من **الثقافة والعلم والأدب** يساعدهم على التواصل مع رعيتهم، وكان الحكم المستنصر فيما قدمنا خير دليل على ذلك، حتى إنه كان يعد من العلماء، وكان هو وأبوه الناصر من أهل الفصاحة والبلاغة ومعرفة اللغة والتاريخ والأنساب، وقد روي لهما مقطعات شعرية تدل على بلاغتهما، فمما روي عن الناصر قوله في الرد على منذر ابن سعيد البلوطي عندما اعترض عليه في الإسراف في البنيان: [1]

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

أوَ ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملكٍ محاه حادثُ الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدلُّ على عظيم الشان

وله مقطوعات أخرى ذكرتها المصادر الأدبية ومجاوبات مع الشعراء[2]. وكان له توقيعات حسنة[3]. ويفهم من بعض مجاوباته الشعرية ومداعباته أنه كان يعرف اللغة القشتالية[4].

وكذلك كان المستنصر يقول الشعر فمن ذلك قوله: [5]

---

(١) انظر الأبيات في المغرب ١/١٧٩-١٨٠.

(٢) انظر المغرب ١/١٨٣، ١٨٤، الحلة السيراء ١/١٩٩، البيان المغرب ٢/٢٢٧.

(٣) انظر المغرب ١/١٨٤.

(٤) البيان المغرب ٢/٢٢٧.

(٥) المغرب ١/١٨٧، الحلة السيراء ١/٢٠٣.

عجبتُ وقد ودَّعتها كيف لـم أمُتْ وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العَبْرى عليها اسكبي دماً ويا كبِدي الحرّى عليها تقطّعي

وله مقطوعات أخرى[1].

وكان الخليفتان يرتاحان للشعر وينبسطان إلى أهله ويتذوقانه ويثيبان الشعراء عليه، مثلما كانا يتذوقان الأدب عامة[2]، فقد كان إعجاب الناصر بخطبة منذر بن سعيد البلوطي أمام رسول ملك القسطنطينية سببا في تقديم منذر وتسليمه وظائف رفيعة في الدولة، إذ أقبل الناصر على ولده الحكم يسائله عنه، ثم قال: "لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها، مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي إنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بهاعلى البديهة لوقته، إنه لأعجب وأغرب"[3].

٩- المحافظة على تقاليد الحكم والإدارة:

إن من يتابع سياسة خلفاء بني أمية في الأندلس وتدبيرهم في الحكم يتبدى له بسهولة مدى التزامهم بتقاليد السياسة والإدارة ودقة تفاصيلها، حتى في ترتيبات استقبال الوفود، وترتيبات جلوس الناس في المناسبات المختلفة على طبقاتهم وأصنافهم.

---

(١) المغرب ١/١٨٦-١٨٧.

(٢) انظر الحلة السيراء ١/١٩٩.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس ٦٨-٦٩.

وكانت تراتيبهم الإدارية متطورة ودقيقة وتهدف إلى خدمة الدولة والرعية على السواء. ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما أورده صاحب نفح الطيب عن الحسبة في الأندلس حيث يقول: "وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن، وكأن صاحبها قاض، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكبا على الأسواق، وأعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان، للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذا للثُّمْن.. وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة.. ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه.."[1].

ومما يدل على مدى تقدم رؤيتهم الإدارية وإدراكهم لارتباط الأصول الإدارية بالتقدم الحضاري ما ورد في كتاب المغرب عن الخليفة الناصر أنه "أقدم عليه رجل وقاح بالشكوى والصياح، وخرج من أمره أنه اشترى حماراً فخرج فيه عيب، فرفع ذلك إلى القاضي فرد حكمه إلى أهل السوق، فأفتوا أنه عيب حديث، قال: فألزموني به وأنا لا أريده. فقال (الناصر): تجاوزتَ القاضي وأهل

---

(١) نفح الطيب ١/٢١٨-٢١٩.

السوق في هذه المسألة الوضيعة!! ثم أمر به فضرب، ونودي عليه بذلك مجرسا. ورد رأسه إلى وزرائه، وقال: أعلمتم أن الأمير عبد الله جدي بنزوله للعامة في الحكم للمرأة في غزْلها والحمال في ثمن ما يحمله والدلال في ثمن ما ينادي عليه، أضاع كبار الأمور ومهماتها والنظر في حروبه، ومدارأة المتوثبين عليه، حتى اضطرمت جزيرة الأندلس وكادت الدولة ألا يبقى لها رسم؟! وأي مصلحة في نظر غزل امرأة ينظر فيه أمين سوق الغزل وإضاعة النظر في قطع الطرق وسفك الدماء وتخريب العمران؟!"[1].

(١) المغرب ١/١٨٥.



خاتمة

شهدت الأندلس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وابنه الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) نهضة لم تشهدها في أي عصر من عصورها التاريخية، جعلت من قرطبة عاصمة كونية. وشملت هذه النهضة جوانب الحياة كافة:

عسكرية، جعلت الأندلسيين يطأون أراضي في إسبانيا لم يطأوها من قبل، ووحّدوا الأندلس، وضموا إليها أجزاء من المغرب.

وسياسية، جعلت رسل الإسبان والأوروبيين يفدون على قصور الخلفاء يطلبون المهادنة والسلم ويسجدون بين أيدي الخلفاء تارة ويقبلونها تارة حسبما ذكرت بعض المصادر[1].

واقتصادية، جعلت الأندلس تخلو من السائلين وتعيش في رخاء ورفاهية.

وعلمية، جعلت من قرطبة قبلة لعلماء المشرق والمغرب.

وعمرانية، جعلت من العمارة الأندلسية مثلا أعلى في الهندسة والإتقان وجمال الصنعة.

---

(١) نفح الطيب ١/٣٥٤، ٣٩١.

وقد احتشدت خلف هذه النهضة جملة من العوامل كان في مقدمتها سيادة العدل والحرية من غير تفريط والتسامح من غير لين وإفراط، والمساواة بين جميع طوائف الأندلس وأعراقها وأصولها، واستثمار كل الطاقات الموجودة فيها كل في المجال الذي يحسنه ويجيده، وصاحب ذلك كله الرفق بالرعية وتقديم مصلحتها على مصالح سائر الناس.

أما العدل والمساواة فلأنّهما يعززان الانتماء للأمة والوطن ويؤديان إلى الاستقرار والطمأنينة والولاء للحُكم، ولذلك قال رسول كسرى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: عدلت فأمْنتَ فنمت. ولذلك قيل أيضاً: العدل أساس الملك.

وأما إيثار الرعية وتقديم مصالحها فإنه يجعل من السلطان قدوة لكل مواطن فيؤثر الناس وطنهم على أنفسهم فتتحقق مصلحة الوطن ونهضته وينعكس ذلك بالخير على الناس أنفسهم.

وأما صيانة الحريات فإنها كفيلة بإطلاق الطاقات الإبداعية من عقالها، وكفيلة بتشييد مجتمع يؤمن أبناؤه بحقوق الآخرين في التفكير والاعتقاد، فيغدو مجتمعا متماسكا آمناً ومستقراً.

وأما التسامح، فإنه كفيل بمنح الإنسان الجرأة على التعبير عن

رأيه وموقفه مما يؤدي إلى الإصلاح من خلال المشاركة بالرأي والفكر. كما أنه يفرغ النفس من ضيقها وانفعالاتها ويؤدي إلى الإبداع في مناخ من الهدوء والثقة.

وأما استثمار التنوع السكاني فإنه كفيل بتوظيف جميع الطاقات لخدمة النهضة، ويضمن ولاء الأجناس والطوائف جميعا للوطن.

وأما الشورى، فإنها تحصن القرار السياسي وغيره من الشطط والخطأ والزلل، وتوزع مسؤوليته بين أطراف كثيرة.

وأما الإعلاء من شأن العلم والعلماء، فلأن العلماء هم عقل الأمة، والعمل من غير علم مآله إلى الضياع، فبمقدار ما يتطور العلم والمعرفة ترقى الأمم وتنهض.

وأما ثقافة السلاطين فشرط أساسي من شروط تواصلهم مع رعيتهم وتواصلهم مع محيطهم ومع ماضيهم لخدمة حاضرهم ومستقبلهم.

وأما المحافظة على تقاليد الإدارة والحكم، فلأنها هي التي تمنح الدولة بعض هويتها وشكل أدائها، وتصونها من الفوضى والاضطراب.

فإذا اجتمعت هذه الشروط كلها- كما اجتمعت في عهد الخليفة

الناصر والخليفة المستنصر - فإنها من غير شك سوف تكون قادرة على النهوض بالأمة وتحصينها وضمان نجاحها وتطورها.

لكن تسليط الضوء على التجربة الأندلسية أو على جانب منها لتقديم نموذج للنهضة وشروط قيامها، لا يعني بالضرورة عدم وجود نماذج أخرى مماثلة أو ربما أفضل حالا، بل لا بدّ من الالتفات إلى نماذج النجاح في القديم والحديث للإفادة منها في أي مشروع لنهضة الأمة. كما أن تجارب الإخفاق والتراجع جديرة هي الأخرى بالتأمل والاعتبار، فمن خلال الاهتمام بها ومراجعتها والنظر فيها نستطيع أن نقف على ما ينبغي علينا أن نتلافاه في أي مشروع للنهضة.



الملاحق

الملحق رقم ١ – مراسم استقبال رُسل صاحب القسطنطينية سنة ٣٣٨هـ.

الملحق رقم ٢ – خطبة القاضي منذر بن سعيد البلوطي بين يدي عبد الرحمن الناصر لدى استقبال رُسُل صاحب القسطنطينية .

الملحق رقم ٣ – خطبة القاضي منذر بن سعيد البلوطي في التعريض بالخليفة عبد الرحمن الناصر لدى غيابه عن صلاة الجمعة لثلاثة أسابيع متتاليات .

الملحق رقم ٤ – ردّ القاضي منذر بن سعيد البلوطي على الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما سأله عن رأيه في القبة العجيبة التي بناها في الزهراء .

الملحق رقم ٥ – قصة القاضي منذر بن سعيد البلوطي مع الخليفة عبد الرحمن الناصر في شأن أحباس أيتام أخي نجدة .

الملحق رقم ٦ – قصة أبي إبراهيم المشاور مع الخليفتين الناصر والمستنصر .

الملحق رقم ٧- قصة قضاة قرطبة مع الخليفة عبد الرحمن الناصر في شأن أحباس المرضى بقرطبة .

الملحق رقم ٨- قصة ابن المشاط مع الناصر في شأن إطالة الصلاة .

الملحق رقم ٩- كتاب الخليفة المستنصر إلى الرعية بإسقاط مغرم السدس .

الملحق رقم -١-

مراسم استقبال رسل صاحب القسطنطينية في الزهراء(١)

وكان وصول أرسال صاحب القسطنطينية عظيم الروم قسطنطين بن ليون في شهر صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة، وتأهب الناصر لورودهم، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه، وأخرج إلى لقائهم ببجّانة يحيى بن محمد بن الليث وغيره، لخدمة أسباب الطريق، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة، خرج إلى لقائهم القواد، في العدد والعدة والتعبئة، فتلقوهم قائداً بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين: ياسراً وتماماً، إبلاغا في الاحتفاء بهم، فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه، وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم، المنسوبة إلى نُصَيْر، بعدوة قرطبة في الربض، ومُنعوا وحُموا من لقاء الخاصة والعامة، وملابسة الناس جملة، ورُتِّب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا، لأربع دول[٢]، لكل دولة أربعة منهم. ورحل الناصر لدين

---

(١) أزهار الرياض ٢/٢٥٨-٢٦١، نفح الطيب ١/٣٦٦-٣٦٨.

(٢) أي أربع نوبات.

الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة، لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، من السنة المذكورة، في بهو المجلس الزاهر، قعودا حسنا نبيلا؛ فقعد عن يمينه من بنيه، وليُّ العهد الحكم، ثم عبد الله، ثم عبد العزيز، ثم الأصبغ، ثم مروان؛ وقعد عن يساره المنذر، ثم عبد الجبار، ثم سليمان. وتخلف عبد الملك، لأنه كان عليلا لم يطق الحضور. وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجّاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم، وقد بُسِط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك[1]، وظللتَ أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور. فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك، وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية، وهو في رق مصبوغ لوناً سماويا، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا، مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضا، فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب، وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة

---

(١) نوع من البسط.

قسطنطين الملك، معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه:

"قسطنطين ورومانس، المؤمنان بالمسيح، الملكان العظيمان، ملكا الروم".

وفي سطر آخر:

"العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله تعالى بقاءه".

وفي خمس بقين منه نقل هؤلاء الرسل من منزلهم بمنية نصير بالربض، إلى دار إبراهيم الفتى، بداخل قرطبة.

وفي آخر هذا الشهر أعاد الناصر لدين الله القعود الثاني لرسل ملك الروم، بقصر الزهراء، فاحتفل لذلك أيضا، واستكمل له الأهبة، وبالغ في الزينة، وقعد على باب السدة صاحب المدينة، مع من ضم إليه من العرفاء والشرط والحرس، وهم صفوف قيام، وقام مع سور القصر سماط من الموالي، في الملابس الحسان والسلاح الشاكّ، وألزم الفصلان كلها جُمَلاً من العبيد والحشم والبوابين وغيرهم، في أشكل زيهم.

ثم أعاد القعود لهم بالزهراء، وهذا القعود الثالث، كان يوم الخميس لثلاث بقين منه، على ما تقدم في الأهبة والاحتفال في الزينة.

وفي النصف من جمادى الأولى منها أدخل الناصر لدين الله هؤلاء الرسل على نفسه، في مجلس خاص، قعد لهم فيه بقصر الزهراء، في المجلس المشرف على الرياض، فلما خرجوا من عنده، أدْخِلوا في ديار الصناعات والعُدَّة بأكناف الزهراء ودار السكة، وطِيفَ بهم بأرجائها، ثم صُرِفوا إلى دار نزولهم، فاتصل مقامهم بقرطبة في كرامة موصولة، وعطايا متوالية، إلى أن كملت الهدية التي كوفئ بها الطاغية مرسلهم، وأسلمت إليهم، مع أجوبتهم، وأُمِروا بالرحيل.

وجلس لهم الناصر لدين الله في النصف من شوال من السنة بعدها، فدخلوا للوداع، وجُدِّدت لهم الخِلَع، وانطلقوا لسبيلهم، متعجبين مما رأوا من عز الإسلام.

الملحق رقم -٢-

خطبة القاضي منذر بن سعيد البلوطي بين يدي عبد الرحمن الناصر لدى استقبال رسل صاحب القسطنطينية[1]

لما احتفل الناصر لدين الله في الجلوس لدخول رسول ملك الروم الأعظم، صاحب القسطنطينية عليه، بقصر قرطبة، الاحتفال الذي شهر ذكره في الناس، أَحَبَّ أن يقيم الخطباء والشعراء بين يديه بذكر جلالة مقعده، ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة في دولته. وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولّي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء. فأمر الحكم صنيعته الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني بالتأهب لذلك، وإعداد خطبة بليغة، يقوم بها بين يدي الخليفة. وكان يدّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسعه. وحضر المجلس السلطاني. فلما قام يحاول التكلّم بما رواه، بهره هول المقام وأبهة الخلافة؛ فلم يهتد إلى لفظة، بل غُشِيَ عليه، وسقط إلى الأرض. فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم، صنيعة الخليفة وأمير الكلام: "قم! فارقع هذا الوهي!" فقام؛ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلّى على

(١) تاريخ قضاة الأندلس ٦٦-٦٩، اقتباس الأنوار ٣٨-٤١، أزهار الرياض ٢/٢٧٢-٢٧٦، مطمح الأنفس ٢٣٩-٢٤٥، نفح الطيب ١/٣٦٨-٣٧١.

نبيه محمد- صلّى الله عليه وسلم!- ثم انقطع به القول؛ فوقف ساكتاً، مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه.

فلما رأى ذلك منذر بن سعيد (وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء)، قام من ذاته؛ فوصل افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام عجيب، وفصل مصيب، يسحّه سحّاً، كأنما يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي. فقال: "أما بعد حمد الله، والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه، فإنّ لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقالا، وليس بعد الحق إلا الضلال. وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم؛ فاصغوا إليّ- معشر الملأ! بأسماعكم، وأيقنوا عني بأفئدتكم. إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت! وللمبطل: كذبت! وإن الجليل- تعالى في إسمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه!- أمر كليمه موسى- صلّى الله عليه وسلم وعلى جميع أنبيائه!- أن يذكّر قومه بأيام الله عندهم؛ وفيه وفي رسول الله محمد- صلى الله عليه وسلم!- أسوة حسنة! وإنّي أذكّركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمّت شعثكم، بعد أن كنتم قليلا، فكثّركم؛ ومستضعفين، فقواكم؛ ومستذلّين، فنصركم! ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام

ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، بضيق الحال ونكد العيش والتقتير! فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء. أنشُدكم الله- معاشر الملأ!- ألم تكن الدماء مسفوكة؟ فحقنها! والسُبُلُ مخوفةً؟ فأمّنها! والأموالُ منتهبة؟ فأحرزها وحصّنها! ألم تكن البلاد خرابا؟ فعمّرها! وثغور المسلمين مهتضمة؟ فحماها وزهّرها! فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتأليفه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوّكم بعد أن كان بأسكم بينكم! ناشدتكم الله! ألم تكن خلافته قيد الخلافة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكِلْ ذلك إلى القواد والأجناد؟ حتى باشره بالمهجة والأولاد، واعتزل النسوان وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطويّة صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل منشور، متحملا للنَّصَب، مستقبلا لما نابه في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة

الفتنة عند حدّتها، ولم يبق لها غارب إلا جبّه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جَدّه! فأصبحتم بنعمة الله إخوانا، وبلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائكم أعوانا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب البركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فجّ عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل منه ومنكم جملة وتفصيلا، ليقضي الله أمراً كان مفعولا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدلّ على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وغيبها عاتم؛ ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكُمْ وعَملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كما استخْلَفَ الذين من قَبْلِهم﴾[1] وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب! فاحمدوا الله، أيها الناس، على آلائه، واسألوا المزيد من نعمائه! فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين- أيده الله بالعظمة والسداد، وألهمه محاضر التوفيق إلى سبيل الرشاد!- أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعاً، وأجلّهم صنعاً، لا تهاجون ولا تؤاذون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون. فاستعينوا على

---

(١) سورة النور ٥٥ .

صلاح أحوالكم، بالنصيحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في فرقة الجماعة، ومرق من الدين، فقد ﴿خَسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخُسْرانُ المُبين﴾[1].

وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها، والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتُوَفَّى العهود، وبها وصلت الأرحام، وصحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وآمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار؛ فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به؛ فإنه- تبارك وتعالى- يقول: ﴿أطِيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمْرِ منكم﴾[2]. وقد علمتم- معشر المسلمين!- ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم، وتفريق ملّتكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم- صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين!- أقول هذا، وأختمه بالحمد لله رب العالمين! وأستغفر الله الغفور الرحيم: فهو خير الغافرين!

---

(١) سورة الحج ١١.

(٢) سورة النساء ٥٩.

ثم أنشد يقول :

مقالٌ كحدّ السيف وسط المحافلِ فَرَقْتَ به ما بين حقٍّ وباطل
بقلب ذكي ترتمي جنباتُهُ كبارقِ رعدٍ عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلي ولا زل مقولي ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
بخير إمامٍ كان أو هو كائنٌ لمقتبلٍ أو في العصور الأوائل
وقد حدقت نحوي عيونٌ أخالها كمثل سهامٍ أثبتت في المقاتل
ترى الناس أفواجاً يؤمّون داره وكلّهم ما بين راضٍ وآمل
وفودُ ملوك الروم وسط فِنائهِ مخافةَ بأسٍ أو رجاءً لنائل
فعِشْ سالما أقصى حياة معمّر فأنت غياثُ كلّ حافٍ وناعل

فقال العلج : هذا والله كبش الدولة . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه . وكان الخليفة الناصر لدين الله أشد تعجبا منه ، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته ، فسأله عنه ، فقال الحكم : هذا منذر بن سعيد البلوطي . فقال : والله لقد أحسن ما أنشأ ، فلئن كان حبّر خطبته هذه وأعدّها ، مخافة أن يدور ما دار ، فيتلافى الوهي إنه لبديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته إنه لأعجب

وأغرب، ولئن أبقاني الله تعالى لأرفعن من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه، وذكّرني بشأنه، فما للصنيعة مذهب عنه.

فلما ابتنى الناصر الجامع بالزهراء ولاه الصلاة فيه والخطبة، ثم توفي محمد بن أبي عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة، وأقره على الصلاة بالزهراء.

الملحق رقم -٣-

خطبة البلوطي في تغيّب الناصر عن صلاة الجمعة ثلاث مرّات متتاليات بسبب انشغاله بالبنيان[1]

وكان الخليفة الناصر كَلفاً بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وانبساط مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه، وعزة سلطانه وعلو همّته، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى ابتناء مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر في الأرض أثره، واستفرغ وسعه في تنجيدها وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه. فأراد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله، وَجْهَ الله في أن يعظه ويقرعه في التأنيب، ويغضّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطابة، والتذكير بالإنابة. فابتدأ أول خطبته بقوله تعالى: ﴿أتبنونَ بكلّ ريعٍ آيةً تعبثون، وتتخذونَ مصانعَ لعلكم تخلُدون، وإذا بطشتُمْ بطشتُمْ جبّارين، فاتقوا الله وأطيعونْ، واتقّوا الذي أمدّكم بما تعلَمُون، أمدّكم بأنعامٍ وبنين، وجنّاتٍ وعُيون، إنّي أخافُ عليكُمْ عذابَ يومٍ عظيم﴾[2]. ووصل

---

(١) مطمح الأنفس ٢٤٥-٢٤٨، تاريخ قضاة الأندلس ٦٩-٧٠، نفح الطيب ١/٥٧٠-٥٧٢، أزهار الرياض ٢/٢٧٧-٢٧٩، اقتباس الأنوار ٤١-٤٢.

(٢) سورة الشعراء ١٢٨.

ذلك بكلام جزل، وقول فصل، جاش به صدره وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيّد والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، فجرى في ذلك طلقا، وتلا فيه قوله تعالى: ﴿أفمَنْ أسّسَ بنيانَهُ على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أم مَنْ أسَّسَ بنيانَهُ على شفا جرف هار فانهارَ به في نارِ جهنّم والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزالُ بنيانُهُمْ الذي بنوْا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليمٌ حكيم﴾[1]. وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير منه، والدعاء إلى الله عز وجل في الزهد في هذه الدنيا الفانية والحض على اعتزالها والتبيين لظاهر معانيها، والترغيب في الآخرة ومغانيها، والتقصير عن طلب اللذات، ونهي النفس عن اتباع الشهوات. وتلا من القرآن العظيم ما يوافقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ويطابقه، حتى بكى الناس وخشعوا وضجّوا وتضرعوا وأعلنوا الدعاء إلى الله تعالى (في التوبة والابتهال في المغفرة). فعلم الخليفة أنه هو المقصود به، والمعتمد بسببه، فاستجدى وبكى، وندم على ما سلف منه من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه، واستعصمه برحمته، إلا أنه وجد على منذر بن سعيد لغلظ ما قرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد

(١) سورة التوبة ١٠٩ – ١١٠ .

انصرافه، وقال: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وأسرف في ترويعي وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي وصيانتي عن توبيخه. واستشاط غيظا عليه وأقسم أن لا يصلّي خلفه الجمعة أبداً، فقال له الحكم: وما الذي يمنعك من عزل منذر ابن سعيد والاستبدال منه بغيره. فزجره وانتهره، وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه- لا أمّ لك- يُعْزَلُ في إرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله تعالى أن أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد ولكنه وَقَذَ نفسي وكاد أن يذهبها، والله لوددت أني أجد سبيلا إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلّي بالناس حياته وحياتنا فما أظننا نعتاض منه أبدا.

الملحق - ٤ -

ردّ البلوطي على الناصر عندما سأله عن رأيه في القبة العجيبة بالزهراء[1]

ومن أخبار منذر بن سعيد المحفوظة له مع الخليفة عبد الرحمن في إنكاره عليه الإسرافَ في البناء، أن عبد الرحمن كان قد اتخذ لسطح القبيبة الصغرى التي كانت ماثلة على الصرح الممرَّد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميدَ ذهب وفضة أنفق عليها مالاً جسيماً، وجعل سُقُفَها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، تسلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعشعة، وجعل فيها إثر تمامها لأهل مملكته مشهدا، فقال لقرابته ومن حضره من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة: هل رأيتم قبلي أو سمعتم من فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين وإنك لأوحد في شأنك كله، ولا سبقك في مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره. فأبهجه قولهم، وبينما هو كذلك سارا ضاحكا إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه

---

(١) مطمح الأنفس ٢٥٧-٢٥٩، تاريخ قضاة الأندلس ٧١-٧٢، أزهار الرياض ٢/٢٨٠-٢٨٢، نفح الطيب ١/٥٧٣-٥٧٤، الروض المعطار ١٤٠-١٤١، اقتباس الأنوار ٤٢-٤٣ .

من ذكر السقف، واقتداره على إبداعه. فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضّلك على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين. قال: فاقشعر عبد الرحمن من قوله وقال: انظر ما تقول، وكيف أنزلتني منازلهم؟ قال: نعم، أليس الله تبارك وتعالى يقول﴿ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمّةً واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فضة ومعارجَ عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسُرُراً عليها يتكئون﴾[1] قال: فوجم الخليفة عبد الرحمن ونكس رأسه مليا ودموعه تجري على لحيته خشوعا لله تبارك وتعالى ندما، ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله تعالى يا قاضي خيرا عنا وعن المسلمين والدين، وكثّر في الناس أمثالك فالذي قلت، والله، الحق. وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قرمدها ترابا.

---

(١) سورة الزخرف ٣٣.

الملحق -٥-

قصة القاضي البلّوطي مع الخليفة الناصر في شأن أحباس أيتام أخي نجدة[1]

وكان القاضي منذر بن سعيد من ذوي الصلابة في أحكامه والمهابة في أقضيته وقوة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه. ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته المشهورة في أيتام أخي نجدة، حدَّث بها جماعةٌ من أهل العلم والرواية، وهي أن الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه، فوقع استحسانُه على دار كانت لأولاد زكريا أخي نجدة، وكانت بقرب النّشارين في الربض الشرقي منفصلة عن دوره، يتصل بها حمام العامة، له غلة واسعة، وكان أولاد زكريا أخي نجدة أيتاما في حجر القاضي، فأرسل الخليفة له مَنْ قَوَّمها بعدد ما طابت به نفسه، وأرسل أناسا أمرهم بمداخلة وصيّ الأيتام في بيعها عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلا بأمر القاضي، إذ لم يجز بيع الأصل إلا عن رأيه ومشورته. فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه،

---

(١) مطمح الأنفس ٢٥٢-٢٥٤، نفح الطيب ١٦/٢ .

منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد، ومنها الغبطة، فأما الحاجة، فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهي فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرتُ وصيهم بالبيع وإلا فلا. فنقل جوابه هذا إلى الخليفة، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعا أن يتوخى رغبته فيها. وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأولاد سَوْرَتُها، فأمر وصيَّ الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، وكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان. فاتصل الخبر به، فعزّ عليه خرابها، وأمر بتوقيف الوصيّ على ما أحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي منذر بن سعيد، وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخي نجدة؟ فقال له: نعم، قال له: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: أخذت فيها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿أما السفينةُ فكانَتْ لمساكينَ يعملونَ في البحرِ فأردتُ أن أعيبَها وكان وراءهُمْ ملكٌ يأخذ كل سفينة غَصْبا﴾[1] مقوموك لم يقدّروها إلا بكذا وبذلك تعلق وهمك، فقد نضّ في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمّام فضلاً، ونظر الله تعالى للأيتام. فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك، فقال: نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيراً.

---

(١) سورة الكهف ٧٩.

الملحق رقم -٦-

قصص أبي إبراهيم إسحق بن إبراهيم بن مسرة المشاور (ت ٣٥٤هـ) مع الخليفتين الناصر والمستنصر[1]

وكان الحكم أمير المؤمنين معظِّما له. وكان إذا دخل عليه يمد رجليه أمامه، ويعتذر لشيخته، فيقول له الحكم: لا مؤونة عليك منا، اقعد كيف شئت. وكان صليبا، قليل الهيبة للملوك، متصرفا مع الحق حيث ما تصرف. جالس يوما الحكم، فذاكره أبواباً من العلم وأخبار السلف، إلى أن وقع الحكم، فذكر رجلا من القرطبيين، وثلبه، فسكت عنه أبو إبراهيم، ونكس برأسه، ولم يأخذ معه في شيء من ذكره. فوجد الحكم من ذلك. ثم رجع إلى ما كانوا فيه من ذكر الصالحين. فانبعث معه أبو إبراهيم. ثم عاد إلى ذكر الرجل، فأقصر أبو إبراهيم وعاد إلى حاله الأول من الإطراق والوجوم. فأقصر الحكم عن ذكره. ورابه أمر أبي إبراهيم، فأنشد متمثلا بالبيتين المشهورين في مدح مالك بن أنس، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه:

يأبى الجوابَ فما يراجَعُ هيبةً   والسائلون نواكسُ الأذقان

---

(١) ترتيب المدارك ٢/٤٢٤-٤٢٩، أزهار الرياض ٢/٢٨٢-٢٨٦ .

هَدْيُ العلومِ وعِزُّ سلطانِ التقى فهو المطاعُ وليس ذا سلطان

وحكي أنه- أعني الناصر- لما أعذر لأولاد ابنه أبي مروان الأكبر عبيد الله، اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء، لم يتخلّف عنه أحد من أهل مملكته، وأمر أن يُنْذَرَ لشهوده الفقهاء المشاورون، ومن يليهم من العلماء والعدول، ووجوه الناس، فتخلّف من بينهم الفقيه المشاور أبو إبراهيم المشهور الذكر في كتب النوادر والأحكام، وافتقد مكانه، لارتفاع منزلته، فساء ذلك الخليفةَ الناصر، ووجد على أبي إبراهيم، وأمر ابنه ولي العهد الحكم بالكتاب إليه، والتفنيد له، فكتب إليه الحكم رقعة، نسختها:

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاك، وسددك ورعاك، لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي أبقاه الله الأولياء الذين يستعدّ بهم، وجدك متقدما في الولاية، متأخرا عن الصلة، على أنه قد أنذرك، أبقاه الله، خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده، لا أعدمه الله توالي المسرة؛ ثم أُنذرتَ من قبل إبلاغا في التكرمة، فكان، على ذلك كله، من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره، ومعاتبتك عليه، فأعيت عليك عنك الحجة.

فعرِّفْني أكرمك الله، ما العذر الذي أوجب توقفك عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذي سُرَّ به، ورغب المشاركة فيه، لنعرّفه، أبقاه الله بذلك، فتسكن نفسه العزيزة إليه، إن شاء الله تعالى.

فأجابه أبو إبراهيم:

" سلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قرأت، أبقى الله سيدي، هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقفي لنفسي، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا، أبقاه الله ولسلطانه، لعلمي بمذهبه، ولسكوني إلى تقواه؛ واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم، فإنهم كانوا يستبْقون من هذه الطبقة بَقية، لا يمتهنونها بما يشينها، ولا بما يغضّ منها، ويطرق إلى تنقصها، فيستعدّون بها لدينهم؛ ويتزيّون بها عند رعاياهم؛ ومن يفد عليهم من قصّادهم، فلهذا تخلفت، ولعلمي بمذهبه توقفت، إن شاء الله تعالى.

قال: فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبي إبراهيم إسحاق، أعجبه واستحسن اعتذاره، وزال ما بنفسه عليه. وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم، وحق لهما أن يعظماه.

وقد حكى الفقيه أبو القاسم مفرج بن محمد بن مفرّج قال: كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم- رحمه الله- فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية، فإني لعنده في بعض الأيام في مجلسه، بالمسجد المنسوب لأبي عثمان، الذي كان يصلّي فيه قرب داره، بجوفي قصر قرطبة، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خصيّ من أصحاب الرسائل، جاء من عند الخليفة الحكم؛ فوقف وسلّم، وقال له: يا فقيه، أجب أمير المؤمنين، أبقاه الله، فإن الأمر خرج فيك، وها هو قاعد ينتظرك، وقد أُمِرْت بإعجالك، فالله الله. فقال له: سمعا وطاعة لأمير المؤمنين، ولا عجلة؛ فارجع إليه- وفقه الله- وعرّفه عني أنك وجدتني في بيت من بيوت الله عز وجلّ، مع طلاب العلم، أُسْمِعُهُمْ حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم يقيدونه عني، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم، في رضاء الله وطاعته، فذلك أوكد من مسيري إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من اجتمع إليّ من هؤلاء المحتسبين في ذات الله، الساعين في مرضاته، مشيتُ إليه إن شاء الله تعالى.

ثم إنه أقبل على شأنه، ومضى الخصيّ يهينم متضاجرا من توقفه؛ فلم يك إلا ريثما أدى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطيش.

فقال له: يا فقيه، أنهيت قولك على نصّه إلى أمير المؤمنين، أبقاه الله، فأصغى إليه وهو يقول لك: جزاك الله خيرا عن الدين، وعن أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، وأمتعهم بك، وإذا أنت أوعبت، فامض إليه راشدا، إن شاء الله تعالى. فقد أمِرْتُ أن أبقى معك حتى ينقضيَ شغلك، وأذكّرك تمضي معي. فقال له: حسن جميل، ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدة، ويصعب عليّ ركوب دابة لشيخوختي، وضعف أعضائي، وباب الصناعة الذي يقرب إليّ من أبواب القصر المكرم أحوط لي، وأرفَقُ بي؛ فإن رأى أمير المؤمنين، أيده الله تعالى، أن يأمر بفتحه، لأدخل إليه منه، هون علي المشي، وودُع جسمي؛ وأحب أن تعود، فتنهي إليه ذلك عني، حتى تعرف رأيه فيه، وكذلك تعود إلي، فإني أراك فتى شديدا، فكن على الخير معينا.

ومضى عنه الفتى، ثم رجع بعد حين، وقال: يا فقيه، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، وأمر بفتح باب الصناعة، وانتظارك من قبَلِه، ومنه خرجت إليك، وأمِرْتُ بملازمتك مذكّرا بالنهوض عند فراغَك. وقال: افعل راشدا. وجلس الخصيّ جانبا، حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه، بأكمل وأفسح ما جرت به عادته، غير منزعج ولا قلق. فلما انفضضنا عنه قام إلى داره، فأصلح من

شـأنه، ثم مشى إلى الخليفة الحكم، فوصل إليه من ذلك البـاب، وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذاك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه.

قال مفرّج: ولقد تعمدنا في تلك العشية، إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم، المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه، بدير القصير، لنرى الذي تجشم الخليفة له، فوجدناه كما وصف الخصيّ مفتوحا، قد حفّه الخدم والأعوان منزعجين، ما بين كناس وفرّاش، متهيئين لانتظار أبي إبراهيم، فاشتدّ عجبنا لذلك، وطال تحدّثنا عنه.

الملحق رقم -٧-

قصة قضاة قرطبة مع الخليفة عبد الرحمن الناصر في شأن المحشر من أحباس المرضى بقرطبة[١]

ثم إن الناصر، احتاج إلى شراء المحشر، من أحباس المرضى بقرطبة، عدوة النهر، فتشكى - إلى القاضي ابن بقي - أمره وضرورته إليه، لمقابلته متنزهه وباديته فيهم، وأن مطلعه من علاليه. فقال له ابن بقي: لا حيلة عندي، وهو أولى بحفظ حرمة الحبس. فقال له: تكلم مع الفقهاء فيه، وعرّفهم رغبتي، وما أبذله من أضعاف القيمة فيه، فلعلهم يجدوا في ذلك رخصة. فتكلم ابن بقي معهم. فلم يجعلوا إليه سبيلا. وغضب الناصر عليهم. وأمر الوزراء بالتوجيه فيهم، إلى القصر، وتوبيخهم. ففعلوا. فلما وصلوا إلى بيت الوزارة بالقصر، انبرى لهم رجل جديد من الوزارة. فأفحش في خطابهم. وقال لهم: يقول لكم أمير المؤمنين: يا مشيخة السوء، يا مستحلّي أموال الناس، يا آكلي أموال اليتامى ظلماً، يا شهداء الزور، يا آخذي الرشا، وملقني الخصوم، وملحقي الشرور، وملبسي الأمور، وملتمسي الروايات لاتباع الشهوات، تباً لكم، ولرأيكم، فهو أعزه الله، واقف على فسوقكم

(١) ترتيب المدارك ٢/٣٩٩-٤٠١.

قديما، وخدَعكم حديثا، مُغْضٍ عنه، صابر عليه. ثم احتاج إلى دقة نظركم، في حاجة، مرة في عمره، فلم يسع نظركم للتحمل له، ما كان هذا ظنه بكم. والله ليعارضنكم من يومه. وليكشفن ستوركم وليناصحن الإسلام فيكم. وكلاما في مثل هذا.

فبدأ شيخ منهم ضعيف إلى الاعتذار، واللياذ بالعفو. وقال: نتوب إلى الله مما قاله أمير المؤمنين، ونسأله الإقالة. فردّ عليه كبيرهم، محمد بن إبراهيم بن حيون، وكان ذا منة، فقال: لِمَ نتوب يا شيخ السوء، نحن برآء إلى الله من متابتك. ثم أقبل على الوزير المخاطب لهم فقال: يا وزير. ليس المبلغ أنت، وكل ما ذكرته عن أمير المؤمنين، مما نسبته إلينا، فهي صفتكم معاشر خَدَمه، أنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل. وتستحلّون ظلمهم. وتتحفون مماستهم بالرشا والمصانعة، وتبغون في الأرض بغير الحق. وأما نحن فليس هذه صفاتنا، ولا كرامة، ولا يقوله لنا إلا متهم في دينه، فنحن أعلام الهدى، وسروج الظلمة، بنا يتحسن الإسلام، ويفرق بين الحلال والحرام، وتنفذ الأحكام، وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق، وتحقن الدماء، وتستحل الفروج. فهلا إذا أعتب علينا أمير المؤمنين بشيء، لا ذنب فيه لنا، وقال بالغيظ بعض ما قاله، تأنيتَ بإبلاغنا رسالته بأهون من إفحامك وعرّضت لنا بإنكاره،

ففهمنا منك وأجبنا عنه، بما يجب. فكنت تزين على السلطان ولا تفشي سره. وتستحيينا قليلا فلا تستقبلنا بما استقبلتنا به، فنحن نعلم أن أمير المؤمنين أيده الله، لا يتمادى على هذا الرأي فينا، وأنه سيراجع بصيرته في تعزيرنا. فلو كنا عنده على الحالة التي وصفتها عنه، ونعوذ بالله من ذلك، لبطل عليه كل ما صنعه، وعقده وحلّه، من أول خلافته إلى هذا الوقت. فما بتَّ له كتاب حرب، ولا سلم، ولا بيع ولا شراء، ولا صدقة ولا حبس ولا هبة ولا عتق، ولا غير ذلك، إلا بشهادتنا. هذا ما عندنا والسلام.

ثم قام هو وأصحابه منصرفين، فلم يبعدوا إلى باب القصر الأول، إلا والرسول خلفهم بصرفهم إلى مواضعهم من بيت الوزراء. فلقوهم بالإعظام والاعتذار، مما كان من صاحبهم المخاطب لهم. وقال لهم: أمير المؤمنين يعتذر إليكم من موجدته، ويعلمكم بندمه على ما فرط منه، وأنه متبصر في أعذاركم. وقد أمر لكل واحد منكم بصلةٍ وكسوةٍ علامةً لرضاه عنكم. فدعوا له وأثنوا عليه، وانصرفوا أعزة.

الملحق رقم -٨-

قصة أبي عمر أحمد بن مطرف ابن المشّاط الأزدي (ت ٣٥٦هـ) مع الخليفة عبد الرحمن الناصر في شأن إطالة الصلاة[1]

ومن فضائله المشهورة أن الناصر أخذته الجمعة يوما بقرطبة، أيام تولي ابن المشّاط الخطبة- وكان مطيلا لها- فلما خرج الناصر للصلاة دعا وزيره أبا عثمان بن إدريس، وأوصى إليه أن يذكّر ابن المشاط في تخفيف الخطبة، ففعل، وألطف له القول، وقال له: إن الناصر يجد صداعا في رأسه، هو الذي أمسكه عن الحركة إلى الزهراء، ورأى أنه في حرج عن التخلف عن الجمعة. فهو يريد عونه عليها بالتخفيف عنه، والرفق به. فقال له: سمعت قولك، والله الموفق لما يزلف منه. فلما انقضى الأذان، وخرج الناصر إلى مصلاّه جانب المنبر، قام ابن المشاط للخطبة، فترسل في منطقه، واحتفل في افتتاحه وتحميده، والصلاة والسلام على رسوله، ثم أخذ في الوعظ على عباد الله، وروى في الحديث أنه يختبر يوم القيامة، أنعم الناس في الدنيا، وأشدهم بلاء. فيغمس المتنعم في نهر من أنهار جهنم، ثم يخرج منه، فيقول: هل رأيت خيراً قط؟

---

(١) ترتيب المدارك ٢/٤٣١-٤٣٢.

ويؤتى بالمبتلى، فيغمس في نهر من أنهار الجنة، ثم يخرج، فيقال: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا ما رأيت بؤساً قط. وحشد أمثال هذا وأطال، وزاد، فبكى وأبكى الناس، حتى قام في الجامع شبه المأتم من البكاء والشهيق.

قال ابن إدريس: وأبلِست وامتلأتُ غيظا. فلا أدري أكثر ما قال. وخفت أن يظن الناصر أني لم أؤد الرسالة. فلما تمت الصلاة، ودخل الناصر إلى مكانه بالساباط، وأذن للوزراء، فدخلوا وأنا معهم، فدعا بصاحب الصلاة، استربت. فلما وقعت عينه عليه، بشّ له. ورفع منزلته. فسرّي عنّي، فأقعده الناصر، وأقبل يثني عليه، ويكبر مشهده، وأنه ما شهد قط مثله، وأنه يرجو بركته، لما أدركته من الخشوع والبكاء والندم، وأنه متقرب إلى الله تعالى بألف دينار من طيب ماله، شكرا لحضور هذا المشهد، وأنه يرسل بها إلى ابن المشاط، يجعلها حيث رأى من سبل الخير، وانصرف عنه، فوصل إليه الوزير ابن إدريس آخر النهار بها، وقال له: كنت أحوط لدينك، فكرم الله مقامك. فقال له ابن المشاط: يا وزير، اعمل ما شئت، ويكون عملك لله، فلن ترى إلا خيرا ضمانا عليه.

الملحق رقم -٩-

كتاب الخليفة الحكم المستنصر إلى الرعية بإسقاط مغرم السدس عنهم لسنة ٣٦٤هـ[1]

فلما أن كان يوم السبت (لثمان) خلون منه أنفذ الخليفة عزمه في إسقاط سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول أدائه على جميع الرعايا بكور الأندلس لسنة أربع وستين وثلاثمائة شكرا لله تعالى على إنظاره له وحسن بلائه لديه، فنفذت عهوده بذلك في هذا النهار إلى القواد والعمال بكُوَر الأندلس، وعهد أن يكون هذا السدس المسقط مكشوفاً لجميع الرعايا شائعا في الناس يستوي في معرفته العالم منهم والجاهل، فيسبق إلى كلّ من وجب عليه مغرم معرفة السدس الساقط منه قبل أن يأتي القابض، ترفيهاً لهم واهتبالاً بمصالحهم، وأنفذ بذلك إلى الأقطار كتابا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن أمير المؤمنين لم يزل منذ اصطفاه الله تعالى لخلافته، وارتضاه لحمل أمانته، وقلده أعباء بريته، ناظراً لجميع المسلمين، محامياً عنهم، مهتبلاً بأمورهم، متعاهداً لأحوالهم، ساعياً فيما يرفه عنهم ويرغد عيشهم ويرخي بالهم ويصل حبل جماعتهم ويبسط العدل والأمن فيهم، تهون عليه

(١) المقتبس لابن حيّان / تحقيق الحجّي ص ٣٠٧-٣٠٨ .

في ذلك رغائب الأموال ونفيسات الذخائر وجلائل الأعلاق، فيما يعود عليهم ويرفع عنهم، ويرعاهم بعين عن مصالحهم غير نائمة، وجوانح على النصيحة لهم منطوية، ونفس قد حشاها الله عليهم رأفة وملأها رحمة، لا يشغله دانيهم عن قاصيهم، ولا حاضرُهم عن باديهم، ولا يلهيه ما بُسِطَ له من ملكه وعز سلطانه وعلو أمره، وتمكين الله- تبارك وتعالى- له، عن العناية بعلم حق يرفعه وتوهين باطل يضعه، وبحكم عدل ينفذه، وتخفيف مغرم يرجو ثوابه.

فكان أول ما استقبل به نعمة الله في استخلافه إياهم وإكرامه له بصرف أمر الأمة إليه أن أسقط من الجبايات المستقرة على الرعية أعدادا عيَّ ذوي الإدراك حصرها، وشع في العالمين ذكرها، وأبقى الله عز وجل له فخرها وأجرها، مما لم تكن الخلفاء، رضي الله عنهم، مع عظيم فضائلهم وجليل مآثرهم، لتسخو ولا تطيب أنفسها عنه، فهانت عليه في التزلف إلى ربّه، واحتقرها في استصلاح رعيته، ثم لم يكتف بذلك ولا أقنعه حتى وضع عن الرعية بعد قليل مثله، وشفعه بشبيهه، باذلا له بنفس متسعة لفعل الخير، وباع رحيب ببسط الفضل، وهمة أكبر من الدنيا، يقارض ربه فيحسن مقارضته، ويتاجره فتربح تجارته، فكلما جدد الله تعالى له صنعا وزاد في ملكه تمكينا، وعلى أعدائه ظهورا، ازداد لله تعالى

خشوعاً، وبنعمته اعترافاً، ولفضله عليه شكراً، وإلى من قلده أمره إحساناً؛ وأن أمير المؤمنين لمّا تظاهرت آلاء الله تعالى عليه وحسن بلائه عنده، رأى أن يجدد له الشكر ويمتري منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته، وعهد أن يكون هذا الاسم المسقط مكشوفاً لجميع الرعايا ليبعد عن احتيال العمال وتسوَّغ الرعية النعمة به، ويستوي في معرفته العالم والجاهل واليقظ والذاهل، فإذا ورد عليك كتاب أمير المؤمنين هذا فاحتفل في إنذار الناس بأقطار عملك ولا يتخلفنَّ منهم إلا من عذر أحد عنك، وأمُرْ بقراءته عليهم إثر صلاة الجمعة ليفهمه قاصيهم ودانيهم، ويحمدوا الله عز وجل على ما وهب لهم من رأفة خليفتهم، وكريم نظر إمامهم لكافتهم، فيستدرّون عونه بالشكر ويستلهمونه العون على القيام بحقه وأداء مفروض طاعته والنصيحة له، فإنه يستجيب للداعين ويزيد الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين، إن شاء الله، وهو المستعان".



المصادر والمراجع

١ - أخبار الفقهاء والمحدّثين، الخشني، محمد بن حارث (ت ٣٦١هـ/ ٩٧١م)، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٩٢ .

٢ - أزهار الرياض في أخبار عياض، المقّري، أبو العبّاس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، ١٩٧٨م.

٣ - أعمال الأعلام، ابن الخطيب، ذو الوزارتين لسان الدين (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط٢، بيروت، ١٩٥٦ .

٤ - الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، الرشاطي، أبو محمد (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) والإشبيلي، ابن الخرّاط (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٦)، تقديم وتحقيق إيميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية،

معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٩٠ .

٥ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة - بيروت.

٦ - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة، إحسان عبّاس، دار الشروق، عمّان، ٢٠٠١ .

٧ - تاريخ إسبانيا الإسلامية = انظر: أعمال الأعلام.

٨ - تاريخ عبد الرحمن الناصر، لمؤلف مجهول، تحقيق إ. ليفي بروفنسال وإميليو غارسيا غومس، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد وغرناطة، ١٩٥٠ .

٩ - تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ (ت ٤٠٣هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ .

١٠- تاريخ قضاة الأندلس، النباهي المالقي، الشيخ أبو الحسن بن عبد الله الأندلسي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١١- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،

القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة ببيروت ودار مكتبة الفكر بطرابلس ليبيا.

١٢- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح (ت ٤٨٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

١٣- جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، البكري، أبو عبيد (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجّي، دار الإرشاد، بيروت، ط١، ١٩٦٨.

١٤- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير د. سلمى الخضراء الجيّوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

١٥- الحلة السيراء، ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، حققه وعلّق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٣.

١٦- ديوان ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن عبد ربه القرطبي (ت ٣٢٨هـ)، حققه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩ .

١٧- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام الشنتريني، أبو الحسن عليّ (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨-١٩٧٩ .

١٨- رايات المبرزين وغايات المميّزين، ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٧ .

١٩- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠ .

٢٠- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، محمد بن عبد المنعم، حققه الدكتور إحسان عبّاس، مكتبة لبنان- بيروت، ١٩٧٥ .

٢١- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ابن سماك العاملي، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء الغرناطي (ق ٨هـ)،

دراسة وتقديم وتحقيق الدكتور محمود علي مكّي، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٨٤ .

٢٢- شعر الرمادي، يوسف بن هارون، جمعه وقدّم له ماهر زهير جرّار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠ .

٢٣- كتاب الصلة، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١٩٦٦ .

٢٤- طبقات الأطباء والحكماء، ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسّان الأندلسي (ت بعد ٣٧٧هـ)، تحقيق فؤاد سيّد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥ .

٢٥- طبقات النحويّين واللغويين، الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، مصر، ط١، ١٩٥٤ .

٢٦- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٧- فرحة الأنفس لابن غالب = انظر : نص أندلسي جديد.

٢٨- قضاة قرطبة، الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث (ت

٣٦١هـ)، تحقيق عزّت العطّار الحسيني، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

٢٩- المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا= انظر: تاريخ قضاة الأندلس.

٣٠- مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس، الفتح ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت ٤٢٩هـ)، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، دار عمّار ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣ .

٣١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المرّاكشي، عبد الواحد (ت ٦٤٧هـ)، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣ .

٣٢- المُغْرِب في حلى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤ .

٣٣- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ابن حيّان القرطبي، أبو مروان (ت ٤٦٩هـ)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجّي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ .

٣٤- المقتبس (الجزء الخامس)، ابن حيّان القرطبي، نشره ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي

للثقافة، مدريد وكليّة الآداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩ .

٣٥- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس)، الشريف الإدريسي، مطبع بريل، ليدن، ١٩٦٨ .

٣٦- نصّ أندلسي جديد- قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربيّة، مجلد١، ج٢، سنة ١٩٥٥، ص ٢٧٢-٣١٠ .

٣٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقّري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ .



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدّمة	٧
مدخل	١٢
من مظاهر النهضة في الأندلس في القرن الرابع الهجري	٢١
* النهضة السياسية والعسكرية	٢١
* النهضة الاقتصادية	٣٤
* النهضة العمرانية	٣٧
* النهضة العلمية	٤٦
* النهضة الأدبيّة	٥٢
* المرأة الأندلسية	٥٦
عوامل النهضة	٦١
* العدل	٦١
* إيثار الخلفاء للرعية والعمل لمصلحتها والرفق بها	٦٦
* صيانة الحريّات	٧٧

* التسامح ونبذ التعصّب والتطرّف........... ٨٠
*استثمار التنوّع السكاني............... ٨٧
* الشـــورى.................... ٩٣
*الإعلاء من شأن العلم والعلماء............ ٩٦
الثـقـافـة والعـلم والأدب عند أولـي الأمـر.......... ١٠٢
* المحافظة على تقاليد الحكم والإدارة......... ١٠٣
خاتمة........................ ١٠٧
الملاحق....................... ١١١
* الملحق رقم ١- مراسم استقبال رُسُل صاحب القسطنطينية
سنة ٨٣٣هـ..................... ١١٣
* الملحق رقم ٢- خطبة القاضي البلوطي بين يدي الناصر لدى
استقبال رسل صاحب القسطنطينية.......... ١١٧
* الملحق رقم ٣- خطبة البلوطي في تغيّب الناصر عن صلاة
الجمعة....................... ١٢٤
* الملحق رقم ٤- ردّ البلوطي على الناصر عندما سأله عن رأيه
في القبّة العجيبة بالزهراء.............. ١٢٧

* الملحق رقم ٥- قصّة البلوطي مع الناصر في شأن أحباس أيتام أخي نجدة ١٢٩
* الملحق رقم ٦- قصص أبي إبراهيم المشاور مع الناصر والمستنصر ١٣١
* الملحق رقم ٧- قصة قضاة قرطبة مع الخليفة الناصر في شأن المحشر من أحباس قرطبة ١٣٧
* الملحق رقم ٨- قصّة ابن المشّاط مع الناصر في شأن إطالة الصلاة ١٤٠
* الملحق رقم ٩- كتاب المستنصر إلى الرعيّة بإسقاط مغرم السدس ١٤٢
المصادر والمراجع ١٤٥
فهرس المحتويات ١٥٣


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com